(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأمىُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخِل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل فى كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر فى منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] التى نطقوا بها تعنى : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل فى كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أى : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق - تبارك وتعالى - فى آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سجِّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ، وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة[1] صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلٍّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذى لا يُخطئه إلى غيره .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ؛ لكن هناك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل] جاءت بعد نقمة وعذاب وأخْذ للمكذِّبين . قالوا[2] : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل

---

(١) سوَّم الشىء : علَّمه بعلامة . والسُّومة : العلامة والسيمة والسِّيماء بكسر السين : العلامة . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) قاله ابن عباس ، وسفيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٧٠) وقال النحاس : هذا أوْلَى ، لأن القرآن مُنزَّل على النبى ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٠٣] .

بالأخيار ، أو شراً حلَّ بالأشرار . فالمعنى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩)﴾ [النمل] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[1] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

كذلك حين نرى الشرير الذى شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام].

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعنى : فتح فى صالحك ، ومنه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح]

أما فتح عليهم يعنى : بالسوء نكايةً فيهم ، فمعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم فى حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

---

(١) بوأه : أسكنه ، وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . وتبوأت المنزل : اتخذته سكناً . [القاموس القويم ١/ ٨٨] .

وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨)﴾ [المؤمنون]

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجَّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. (٥٩)﴾ [النمل] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدما لاقوه من عَنَت الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذى أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ فى النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل]

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذى ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلَك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذى يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آالله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولابد أن تأتى الإجابة : الله خير ؛ لذلك

لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم »[١] .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكّيرة) الذين يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذى لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَى عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة[٢] ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبى ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]

قالوا : لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[٣] .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٥) أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة « أنه كان إذا قرأ » ولم يذكر رفعه للنبى ﷺ .

(٢) هو : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : وافقت ربى ووافقنى فى أربع ، نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون] ، قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٧/٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب فى النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق –

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب ـ مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأت هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٠) ﴾[النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد] ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة فى حياتنا ، بل هو قوام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هى كذلك الآن ، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقى بذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبح لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالى قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]

(١) أينع الثمر ينيع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب فى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ..﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] فالضمير فى ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك فى (وَأَنزَلَ) أما فى (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذى يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحِى بأن الإنسان هو الذى يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه - عز وجل - ليزيل هذه الشبهة .

وربك - سبحانه وتعالى - يحترم فعْلَك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى فى هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد فى آخر الآية نافياً لأىِّ شبهة فى أن لك دَخْلاً فى مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفى هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتى نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعةَ تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابُدَّ فى مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معانى كثيرة . نقول : عدلَ فى كذا يعنى : أنصف ، وعدل إلى كذا يعنى : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعنى : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعنى : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام]

أى : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

لما تكلم الحق سبحانه فى الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

(١) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم١/٧] .

أما فى هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا .. (٦١)﴾ [النمل] معنى : قراراً أى استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا (٦١)﴾ [النمل]. الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيتجمع فى الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما ينساب فى مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالى الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذى يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ فى أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التى يمرُّ بها .

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (٦١)﴾ [النمل] الرواسى : هى الجبال الثابتة الراسية ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)﴾ [النحل]

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خُلِقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هى مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى فى قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٣)﴾ [النازعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هى متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التى تساقطت على الجبال ، إما فى الأنهار ، وإما فى الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو فى العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هى مخازن للمياه ، هى أيضاً مخازن للخصوبة التى تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التى تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ فى عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهى مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغرْين[1] الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝١٠﴾ [فصلت]

فجعل الجبال الرواسى هى مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمى الذى حملتْه المياه من أعالى الجبال فى إفريقيا ، ليُكَوِّن هذه المنطقة الخصْبة فى مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۝٦١﴾ [النمل]

البحرين : أى العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مِن نَعْمائه
كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه مِنْ مَائه

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ،

---

(١) الغرين : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . وقال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جَفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ فى عدة دقائق ، أمّا لو تركت الماء فى الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع فى الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع فى الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب فى باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] يعنى خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. (٦١) ﴾ [النمل] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌ وسكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات ؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .

ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه فى مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً فى ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذى خلق فسوّى ، والذى قدَّر فهدى .

ومن آيات الله فى خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات فى مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفى الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهى من الطين الذى خُلِق منه الإنسان ، فهى فى

الحقيقة أمه الأولى - فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وألصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلَّفاته وتُحوِّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفى الريف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التى يتشوّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب فى الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذى يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التى تخلق الأضداد .

ألاَ ترونْ أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهى تُرْوى بماء المجارى .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن هذه المظاهر العامة التى يحتاجها كل الخلق فى السماء والأرض والجبال والمطر .. الخ يُحدِّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفى وقت دون آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ[1] إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(يجيب) الإجابة هى تحقيق المطلوب لداعيه ، والمضطر : هو

(١) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . [ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٠٧)] .

الذى استنفد الأسباب ، وأخذ بها فلم تُجْد معه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضروريات‍ها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »

ثم خلق الله لك الطاقة التى تستطيع أن تُسخِّر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضرورى من ماء ونبات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّه حياتك فتحرك فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقى وتُثرِى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقائق .. كلها ارتقاءات فى حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتى لا ينبغى لنا ردّها .

فإذا ما حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمر معك الأسباب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً.. (١٢)﴾ [يونس] ويا ليته ساعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ (٦٢)﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لى . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذى يدعو الله أن يسكن فى مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه .. الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ فى فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله - عز وجل - وهو ربُّنا والمتولِّى أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبى لكل مِنّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً - حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شىء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس]

ألاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها فى شىء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهى أشرب

نارك) أو (إلهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك - ولله المثل الأعلى - بحلاق الصحة فى الماضى ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ فى الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد فى ظلام الليل ولفّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] أى : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] يعنى : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التى تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هى العلامات التى يهتدى بها الملاحون فى البحر والمسافرون فى البر ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وقد برع فى علوم الفلك والنجوم وفى علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان فى الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذى لم يتخمر ، وخمير وهو الذى تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلّله الهواء .

وقد نقلوا هذا المعنى للرأى ، يقولون : فلان رأيه فطير يعنى : سطحى متعجل ، وفكرة مختمرة يعنى : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعنى الشىء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت فى خَبْزه حتى خمر ، فلما

خبزته جاء على هذه الصورة المحببة إلينا ، كذلك الأمر فى اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة .. الخ

وتأمل مثلاً : لماذا نطبخ الملوخية ولا نطبخ النعناع ، إنها ـ إذن ـ هداية الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخاله النار ليلين ؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩﴾ [سبأ]

إذن : كثير من اكتشافات الكون وارتقاءاته تأتى بهداية الله ، وكلما مرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كلٌّ فى ميعاده وميلاده الذى أراده الله ، إما أنْ يستنبطه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتى ولو مصادفة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى :﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] فحين يشاء الله يكشف لك الأشياء ، وييسر لك أسبابها ، فإذا لم تنتبه لها أراكها مصادفة ، ومن وسائل إعلام الله لخَلْقه مثلاً أهل البوادى ، ترى الواحد منهم متكئاً ينظر إلى السماء ويقول لك : السماء ستمطر بعد كم من الساعات ، وليس فى السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهداية الإلهية أن ترى البهائم العجماوات وهى تأكل بالغريزة ، تأكل الحشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً النعناع الأخضر ، أو الريحان مع أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جُعِل للرائحة الطيبة ، لكن طعمه غير طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بعدها أبداً على خلاف الإنسان الذى يأكل حتى التخمة ، ثم الحلو والبارد والساخن ، ويقولون (أرِهَا

الألوان تريك الأركان) . أى : أرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوَث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا .. (٦٣) ﴾ [النمل] اى :مُبشِّرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ .. (٦٣) ﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل] تنزَّه أن يكون له فى كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) ﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (٦٤) ﴾[النمل] يعنى : الخلْق الأول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ (٦٤) ﴾[النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا

بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :
﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد فى التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم فى القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفى القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ فى القانون الوضعى جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التى تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلتَ أبداً من عقاب الآخرة - إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ ﴾ [ق]

يقولون : هَبْ أن إنساناً مات ودُفن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة فى هذا المكان وتغذتْ على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثانى ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً فى الثانى ، وإنْ بعثتها للثانى كانت نقصاً فى الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة و معنى . وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى . فهل الجزئيات التى نقصت من وزنه هى نفسها التى دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتى الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ ﴾ [ق]

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

﴿الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة[1] .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ㉗﴾ [الروم]

وإنْ كان الخالق - عز وجل - لا يُقَال فى حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفى القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ .. ⑮﴾ [ق]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ㊿٤﴾[النمل]

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ㊿٤﴾ [النمل] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ㊿٤﴾ [النمل] أى : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذى بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذى أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأت مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارض - ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ،

---

(١) قال ابن عباس : قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④﴾ [ق] : ما تأكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم . وقال قتادة : يعنى الموتى تأكلهم الأرض إذا ماتوا [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٧/ ٥٩٠] .

يكفى أن يدعى الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذى يأتى عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقَّى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حين تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما فى التربة من عناصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين فى الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحسِّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما فى جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذى سُرِق منه شىء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التى اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافى ؛ لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذى نعطيه للأولاد بمقدِّمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التى توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقى ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتفرَّد بمعرفته . وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ.. (٦٥)﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] البعض[1] يظن أن ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أزيل خفاءها[2] ، ففرْق بين خَفى الشىء وأخفاه : خَفَى الشىء عنى : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعنى : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشىء يعنى : أزال عُجْمته . ومنه المعجم الذى يُوضِّح معانى المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعنى : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعنى : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعنى أزال قشرها .

فالمعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] أى : أكاد أُظهرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا مع الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذى لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك يقول عنها : ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف]

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئِل عنها :

---

(١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٣) قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى .

(٢) أخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ورقاء قال : أقرانيها سعيد بن جبير (أَكَادُ أَخْفِيها) [بفتح الألف] . يقول : أظهرها . [الدر المنثور للسيوطى ٥/٥٦٣] .

« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[١] .

فشَرَفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التى أخبر بها النبى ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته فى وحى القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤ ﴾ [الروم]

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته يتمنوْن انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحى على رسول الله يخبره ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ ﴾ [الروم] لكنهم فى النهاية ﴿ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ ﴾ [الروم] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤ ﴾ [الروم] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظْميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ۝٥ ﴾ [الروم]

وتشاء قدرة الله أنْ يأتىَ انتصار الروم على الفرس فى نفس

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ فى صورة رجل يسأله ، ومما سأله قال : « أخبرنى عن الساعة . . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البنيان . ثم قال رسول الله ﷺ لعمر : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

اليوم الذى انتصر فيه المؤمنون على الكافرين فى بدر[١] .

ومن الغيب الذى يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصِّديق أبى بكر - رضى الله عنه - وقد أعطى ابنته عائشة - رضى الله عنها - مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتى ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هى الأخرى[٢] ؟

كان الصِّديق قد تزوج من ابنة خالته[٣] وكانت حاملاً ، لكن الحق - تبارك وتعالى - تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء[٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل] أى : كما

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧ .

(٢) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق التيمية ، تابعية ، أمها حبيبة بنت خارجة وضعتها بعد موت أبى بكر . روى عنها جابر بن عبد الله الأنصارى . [الإصابة ٨/٢٧٦] .

(٣) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك . تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨) .

(٤) تزوج أبو بكر الصديق عدة نساء :
- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وأنجب منها : عائشة ، عبد الرحمن . اسمها زينب بنت عبيد : كانت زوجة للحارث بن سخبرة أو لعبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق . ماتت فى حياة النبى ﷺ [الإصابة ٨/٢٣٢] .
- حبيبة بنت خارجة ، وأنجب منها : أم كلثوم ، وتزوجت بعده .
- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بنى عامر بن لؤى ، وهى والدة أسماء ، وعبد الله . قال ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٨/١٦٩) : « إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت » .

أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾

معنى ﴿ ادَّارَكَ .. ٦٦ ﴾ [النمل] أى : تدارك ، يعنى : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. ٣٨ ﴾ [الأعراف] يعنى : جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا .. ٦٦ ﴾ [النمل] أى : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾ [النمل] أى : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦ ﴾ [الحج]

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكنى أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتى ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى ﴿ عَمُونَ ٦٦ ﴾ [النمل] جمع عَمٍ ، وهو الذى عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتى مع الدنيا ، وما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتى آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : من لدن آدم ـ عليه السلام ـ والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴿٦٨﴾﴾ [النمل] أى : كذب وافتراء ونسج خيال كما فى أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل فى بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه فى المعاصى يريد أنْ يُؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا أنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس فى جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعى أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول .

لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول فى القدر : إذا كان الله قد كتب علىَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبنى بها ؟ والمنطق يقتضى أن يكملوا

الصورة فيقولون : وإذا كتب عليَّ الطاعة ، فلماذا يثيبني عليها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذى ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يدعوهم الله تعالى إلى السير فى مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعث ، لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر فى عاقبة المجرمين الذين كذَّبوا رسلهم فيما أتَوا به ، وكيف أن الله هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا يُجلِّيهَا لوقْتِهَا إلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يُسلِّى الله تعالى رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقى فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

والمعنى : مُهلك نفسك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة فى

الذبح بحيث توصله إلى البخاع[1] . والحق - تبارك وتعالى - يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبى ﷺ لأمته وحرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحد من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] أى : بالبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ [النمل] فى أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه فى حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٍّ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين فى الأولى وهى مُشَاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صدْقنا فى الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على

---

(١) قال الزمخشرى : هو من بخع الذبيحة إذا بالغ فى ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع ، بالباء ، وهو العرق الذى فى الصُّلْب ، والنخع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذى يجرى فى الرقبة . قال ابن الأثير : هكذا ذكره الزمخشرى فى الكشاف وفى كتاب الفائق فى غريب الحديث ولم أجده لغيره . [لسان العرب - مادة : بخع] .

مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

كلمة ﴿ عَسَىٰ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، لكَان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأنى لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسى ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابى أنا قد لا تمكِّنى من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهى قمة التأكيد والتحقيق فى الرجاء ، وهى أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿ رَدِفَ لَكُم .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] أى : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة فى بدر(1) ، فصدَقْنا فى الأولى حين قلنا : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذى أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ،

---

(1) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١١٤) : « ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] ، من العذاب ، فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر » .

وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة في وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة في وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) ﴾

ولك أنْ تقول في هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وما يُعْلِنُونَ (٧٤) ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما في الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ[1] فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم . وهذا عام . [ذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١١٥)] .

معنى ﴿ غَائِبَةٍ .. (٧٥) ﴾ [النمل] يعنى : الشىء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول فى المبالغة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّابة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة فى خفائها .

و (منْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأى شىء ؟

إذن : لابد أن لها معنى لكى نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفى وجود مال معك تقول : ما عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفى المال على سبيل تأصيل العموم فى النفس تقول : ما عندى من مال ، يعنى بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هى للغاية وتأصيل العموم فى النفى .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شىء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أى فى أُمِّ الكتاب الذى سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها موافقة لما سجّله الله عنها

أَزَلاً ، فـمـثـــلاً لمـا ذكـر الحق ـ تـبـارك وتعـالى ـ وســائل النقل والمواصلات فى زمـن نزول القرآن قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآيـة بقـوله تعـالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] لكان فـيهـا مـأخذ على القـرآن ، وإلاَّ فأيـن السيـارة والطائرة والصاروخ فى وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق ـ سـبحانه وتعالى ـ ألاَّ يُعلم بشىء لا اخـتيـار للعبـد فـيه ، إنمـا بما له فـيـه اختـيار ويفـضحـه باختياره ، كما حـدث فى مسألة تحويل القبلة : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعـالى صراحة ، ويُسمِّيهم سـفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسـول الله ، وبعد هذه الخصومـة وهذا التجريح قالوا فـعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقـلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : مـا دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفى هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يـحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآيَة : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴿١٤٢﴾﴾ [البـقرة] يعنى : تركـوا التوجه إلى بيت المـقدس وتوجـهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المســألة حدثتْ أيضاً فى شأن أبى لهب لمـا قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدرى مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. ①﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّى له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه - سبحانه وتعالى - ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن فى القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد] .» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ١٨١) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠٧) ومسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخارى فى صحيحه أيضاً (٨/ ٧٣٦ - فتح البارى) .

ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التى له ، ولا يهتم بالتى عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهى عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خالىَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالى الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّى لأعرف

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبى عليه السلام ، كان من بنى قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بنى إسرائيل ومن سادتهم . توفى بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨١] .

محمداً كمعرفتى بابنى ، ومعـرفتى بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

علم عـبـد الله أن الإسلام هو الطريـق الذى يُوصِّله إلى الله والذى ينبغى لكل عاقل أنْ يتبـعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسـلامه وفضـيحـة المنافقين والكفـار وأهل الكتاب ، فـقال : يا رسول الله لقـد استشـرفَتْ نفسى للإسـلام ، وأخاف إنْ أسلمتُ أن يذمَّنى اليـهود ويفعـلوا بى كذا وكذا ، فـاسألهم عنِّى قـبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسـول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا ..

وكـالوا له الثناء والمـديح ، عندها قـال عـبد الله : أمـا وقـد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم(١) .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى .. (٧٧) ﴾ [النمل] أى : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن ولـلكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ (٧٧) ﴾ [النمل] للمـؤمنين فقط . كـمـا قـال سبـحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسـراء] وفَـرْق بين الشـفـاء والرحـمـة ؛ لأن العـطف هنا يقـتـضى المغـايرة . الشفاء : من الداء الذى جاء القـرآن ليعالجه ، والرحـمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

---

(١) أخـرجه البـخارى فى صـحيـحه (٨/١٦٥ ـ فـتح البـارى) والبيـهقى فى دلائل النبـوة (٢/٥٢٧ ـ ٥٢٩) من حـديث أنس بن مـالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفـاظ الحـديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيـدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخـر : « خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] أى : الذى يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير فى كل الأحوال ؛ لأن إيتاء المْلك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع المْلك ممَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضاً ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففى كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك فى شىء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحى الذى لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجئه الموت قبل أنْ يقضى لك حاجتك .

وقال ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل] أى : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرك ومعينك .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُعزيه كى لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ[1] وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٧/٧) : « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك ، فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه » وقال أيضاً فى التذكرة له (ص ١٦٤) : « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما أو فى حال ما ، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » . أو أن المراد نفى الإسماع النافع لهم .

استقبال فى السامع هى الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم فى الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجروُن بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة ـ على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه الحق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لاتبعوه ، ألم يقولوا : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ..(٢٦)﴾[فصلت]

ذلك لأن للقرآن جلالاً وجمالاً يأسرُ الألباب ؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾

فرْق بين سماع قالة الحق أو قضية الصدق ، وأنت خالى الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها ، فلكى يُثمر السماع ينبغى أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها ـ حتى فى الماديات ـ نظرية الحيز أى : أن الحَيِّز

الواحد لا يتسع لشيئين فى الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النمل] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التى تشاهدها فى الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذا الإله الخالق فيأتى دور الرسول الذى يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صدْقه فى البلاغ عن الله هى المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التى جاءتْ بها معجزة النبى ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾

كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] أى : سقط كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] كما فى قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلا

فى موضع واحد[1] هو قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ﴿٨٢﴾﴾ [النمل] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل] أى : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لى : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس فى هذه الدابة[2] ، وفى شكلها وأوصافها ، وكيف

---

(١) وردت لفظة (وقع) فى القرآن ٧ مرات :

- ٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة ونزولها : (الأعراف : ٧١ ، ١٣٤) ، (يونس ٥١) ، (النمل : ٨٢ ، ٨٥) .
- موضعان : أحدهما ، ما ذكره فضيلة الشيخ . (النساء ١٠٠) . والثانى ، قوله تعالى : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف] ، أى : ثبت الحق .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١١٩) : « اختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً .

الأول : أنه فصيل ناقة صالح . وهو أصحها والله أعلم ، لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة .

الثانى : روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً .

الثالث : يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر .

الرابع : وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ، وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض .

الخامس : وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان .

قال القرطبى : قد رفع الإشكال فى هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه » أى : أنها فصيل ناقة صالح .

يأتى القول مـن غير مـألوف القول وهو الدابة ؟ لكن مـا دام أن الله تعالى أخبر بها فهى حقٌ ، لا ينبغى معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع فى هذا الموقف هم العـتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يـحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم فى الضلال فى الدنيا يتقدمهم إلى النار فى الآخرة ، وحـين يرى الضالون إمـامـهم فى الضلال يقـدمهـم ينقطع أملهم فى النجاة ، فربما تعلَّقوا به فى هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصـهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومـعنى ﴿ فَـهُمْ يُوزَعُـونَ (٨٣) ﴾ [النمل] قلنا فى مـعنى ﴿ يُوزَعُـونَ (٨٣) ﴾ [النمل] أى : يُمنعـون ، والمـراد يمنعون أن يسـبق أولهم آخـرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فـالحق ـ تبارك وتعالى ـ يجمع أولهم على آخرهم (ليـشـرفوا) سـوياً فى النار : الـتابع والمـتـبـوع كلهم سـواء فى الذلة والمهـانة ، فربمـا حاول أحد العـتاة أو الجـبابرة أن يسبـق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشـهاد .

---

(١) هذا قول قـتادة فـيمـا نقله القرطبى فى تفـسيره (٧/٥١٢٣) وقـول مجـاهد فـيمـا أورده السيـوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لعبـد بن حميـد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وهناك قـول آخر : أى يساقون . قـاله ابن زيد . وقال القرطبى : أى يُدفـعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : للنوم وللراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : بما فيه من الأشعة والضوء الذى يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم فى تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشىء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشىء المرئى إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذى يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] فربك - عزّ وجلّ - نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغى من فضل الله كما قال تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرْنا على هذا النظام الذى ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعةَ فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة فى حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة فى الإنتاج .. إلخ .

والحق - تبارك وتعالى - يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

ففى الكلام عن الليل قال : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] وعن النهار قال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك فى الليل هى السمع ، وفى النهار البصر . وفى هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفى قوله تعالى ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿٧٣﴾﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر[2] ، أى : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهى تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهى تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق - تبارك وتعالى - بالموجود فعلاً من آيتى الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما فى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا.. ﴿٧١﴾﴾ [القصص] و ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

---

(١) السرمد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) اللف والنشر : هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، ومثال الإجمالى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. ﴿١١١﴾﴾ [البقرة] أى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . [راجع تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٨٠] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ[١] وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) ﴾

وكأن الله تعالى يقول لى : التفتْ إلى العبرة فى الآيات الكونية ، حيث ستنفعك فى يوم آت هو يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ .. (٨٧) ﴾ [النمل] وهو البوق ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [النمل] والفزع : الخوف الشديد الذى يأخذ كلَّ مَنْ فى السموات ، وكل مَنْ فى الأرض ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ.. (٨٧) ﴾ [النمل] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل[٢] .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخى موسى ماسكاً بالعرش »[٣] ذلك لأن موسى عليه السلام صعق فى الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) عن أبى هريرة فى قوله ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [النمل] قال : هم الشهداء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير الطبرى . قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) : « وهو قول سعيد ابن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش ، وحديث أبى هريرة صححه القاضى أبو بكر بن العربى فليعول عليه ، لأنه نص فى التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

(٢) قاله مقاتل ، وفيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) بنحوه من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزى بصعقة الطور » .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾ [النمل] أى : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من الملْك : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فأعطى الله تعالى طرفاً من الملْك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فى القيامة يُنزع منك كلّ شىء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هى تبع إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبطش ، أمَّا فى الآخرة فقد سُلبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾

قوله تعالى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسى والأوتاد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا فى هذا المجلس ، أنتم أمامى وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشيء المتحرك ، ألاَ ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هى التى تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] يعنى : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] يعنى : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض[1] فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون فى الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة]

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنىٌّ على الظن ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨) ﴾ [النمل] وليس فى القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ فكلُّ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحرِّكه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةً فيها ، فلم نرَ جبلاً

---

(١) قال القشيرى : وهذا يوم القيامة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧ / ٥١٢٧] .

تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن الجبال قال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل]

ولو خُلقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

فى الماضى وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون فى المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى فى المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة فى نفس الوقت الذى حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى فى الفضاء الخارجى .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التى تثبت صحة ما نميل إليه فى معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] امتنان من الله تعالى بصنعته، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما

---

(١) ماد يميد : تحرّك واهتزَّ . أى : لئلا تميد وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الامتنان علينا الآن ونحن فى الدنيا(١)

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾(٢)

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التى أخبر بها الحق - تبارك وتعالى - حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغى أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبرك بأنه ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله فى العبادة ، فإن فعلْتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله فى فعله .

والمعنى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : فى الدنيا ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ناشىء عنها فى الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله

---

(١) قال الماوردى فى تفسير الآية : أنها ضَرْب للمثل ، وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .
الثانى : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً فى القلب وعمله صاعد إلى السماء .
الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥١٢٨/٧] .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الخير منها . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ، فإنه ليس شىء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . [تفسير القرطبى ٥١٢٩/٧] .

حسنة فالثواب عليها خَيْـر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذى أُقر بـه فى الشهادة هو الذى يهبنى هذا الثـواب ، فـمَنْ جاء بالحـسنة له خـيـر ناشىء من هذه الحـسنة ومُسبّب عنها . كما لو قلت : مأمـور المركز خير من وزير الداخلية : أى خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقـوله أصحاب الطريق والمـجاذيب يقولون : محـمد خـيـر من ربه ، وفى مـثل هـذه الأقـوال لعب بأفكـار الناس وإثارة لمشـاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكـيف يقول هذه الكلمة ومحـمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعِن النظر فى العبـارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أن الجزاء على الحـسنة خيـر من الحسنة ؛ لأنك تفـعل الحسنـة فعْلاً مـوقوتـاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ[(١)] فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

معنى ﴿ فَكُبَّتْ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] ألقيت بعنـف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

(١) أى : بالشرك . قـاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومـجاهد وقيس بن سعـد والحسن . قال القـرطبى فى تفسـيره (٧/ ٥١٣٠) : « وهو إجـماع من أهل التأويل فى أن الـحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية » .

موضع العزة والشموخ ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد لهم الذلَّة والمهانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) ﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾ [النمل] وكما يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. (١٧) ﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىۡءٍۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩١) ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١) ﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهنى ربى كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربِّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أُمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] أى : مكة وخصّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أُسْرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد[1] شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

---

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③ ﴾ [العصر]

فالله تعالى يريد أن يُعدِّى الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً فى حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

أنت حين تقرأ القرآن فى الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. ㊈ ﴾ [النمل] يعنى : استدم أُنْسك بالكتاب الذى كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْـقك للتكليف ، عشقتَ المكلِّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن فى ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمتى ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ㉑ ﴾ [الأحزاب]

يعنى : شىء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان فى التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَىٰ .. ㊈ ﴾ [النمل] أى : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه .. ㊈ ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰ ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذى اهتدى.

ثم يذكر المقابل ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢)﴾ [النمل] أنا لا يعنينى إلا أننى من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنْس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا احمد الله الذى وفَّقك إليه :

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

أى : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذى لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته فى أنفسكم وفى غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته فى أنفسكم ، وفى السماوات والأرض .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [النمل]

بل هو شهيد على كل شىء .


سورة القصص



سورة القصص[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن مرة يأتى حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾

---

(١) سورة القصص هى السورة رقم (٢٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهى قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبى ٧/٥١٣٣] . نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هى فى ترتيبها فى المصحف) وقبل سورة الإسراء . [الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾

أى : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ۝٣ ﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى ـ عليه السلام ـ إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَنِ ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ۝٣ ﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ.. ۝٦٢ ﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر[1] الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

---

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشىء قطعاً . [لسان العرب ـ مادة : بتر] .

فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي[1] نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ عَلا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله ـ عز وجل ـ فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المُملَّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

---

(١) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف ـ عليه السلام ـ واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

وهنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ قال أيضاً : فرعون . أما فى قصة يوسف عليه السلام فلم يأت ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ لأن الحكم فى مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك فى عهد يوسف بالذات قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود فى عصر يوسف .

فمعنى ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] يعنى : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بنى إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شِيَعاً ، لأن المألوهين ينبغى أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى فى الحديث عن موكب النبوات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسِّكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت فى الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام ـ كما قُلْنا ـ فى صفائه كالماء الذى لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذى أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بضع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرق والشيع والجماعات ، فأيها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً فلستَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ④﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ④﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد - إذن - قَتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذُّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمَّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ④٩﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ①④①﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعدِّد نِعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشىء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشىء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاّ يفلح ظَلُوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرئ ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق - تبارك وتعالى - للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ⑤ ﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ⑤ ﴾ [القصص] أئمة في الدين وفي القيم ، وأئمة في سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ ﴾[القصص] أي : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتي غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون - الذي قوي على المستضعفين وأذلّهم - تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة في المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلَى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية في مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٦﴾﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأن كل حدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين فى عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالك أحد بشىء ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا فى مصر ـ لذلك يقولون فى المثل الريفى المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعنى : أنا لا تنطلى علىَّ هذه الحيل .

والضمير فى ﴿ مِنْهُم .. ⁦(٦)⁩ ﴾ [القصص] يعود على المستضعفين ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⁦(٦)⁩ ﴾ [القصص] أى : سنريهم الشىء الذى يخافون منه ، والمراد النبوءة التى جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتى من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط فى مصر ، لكنها لا تؤذى بنى إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتى من هذه البلد من يسلب منى مُلْكى(١) .

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد فى هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذى يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بنى إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِى على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ⁦(٧)⁩ ﴾

(١) قاله السدى فيما أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم ، ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٨٩) .

عجيب أمر فرعون.. فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل يأتيه فى البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه فى البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضى على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذى سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى فى قصر فرعون ، وأنْ تأتى إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء[1] ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذى ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فقلبه يُغطِّى على بصيرته ويُعمِّيها .

وقوله تعالى لأم موسى : ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] فمَنْ منَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه فى اليم ؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذى أتاها ، والذى لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١ ، ٣٨٢) : « استدعت آسية امرأة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً فى عز وجاه ورزق دارّ » .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهى لموسى فتقول ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ .. ⑨﴾ [القصص]

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شىء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبّى الوليد فى بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل فى مثل هذا الموقف .

لذلك النبى ﷺ حينما قُرئت هذه الآية قال : « والذى يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته - قرة عين لى ولك - لهداه الله كما هداها »(1) . إنما ردَّ الخير الذى ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهى التى قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪﴾ [التحريم] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا فى وحى الله لأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] وقلنا : إن الوحى فى عموم اللغة : إعلام بطريق خفى دون أن تبحث عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به . أما الوَحْى الشرعى فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

---

(1) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعزاه لابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يُحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك » .

فالله تعالى يوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (١٦٣)﴾ [النساء]

ويُوحى للمؤمنين الصادقين فى خدمة رسول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

يوحى إلى النحل ، بل وإلى الجماد : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ويكون من الضالين : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

فالوَحْى إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث فى الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .

وهذا الوحى من الله ، وموضوعه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] وهذا أمر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] نهى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه بشارة فى خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين فى إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] يعنى : مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. ⑦﴾ [القصص] ولم يقل من أىِّ شىء ليدلّ على أىِّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦﴾ [القصص] ويراعى الحق سبحانه مشاعر الأم وقلَقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه فى البحر فيطمئنها ﴿وَلا تَخَافِي .. ⑦﴾ [القصص] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغنَى والملْك .

﴿وَلا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص] أى : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضى على هذا الطاغية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خلْق الله فى الأرض .

ثم اعلمى بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هى الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور[1] دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحى الله لأم موسى فى كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

---

(١) سجر التنور يسجره : أوقده وأحماه ، وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

لكن فَرْق بين الوحى الأول والوحى الآخر : الوحى الأول خاص بالرضاعة فى مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه فى اليم .

وتأمل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. (٣٩)﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أى حال ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت فى هذا الوحى ذكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحى الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحى الثانى للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَهُ منه فَرُحْت تنادى عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام فى الوحى الأول ، فيأتى رتيباً مطمئناً : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] هكذا فى نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحى الثانى فيأتى فى سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] فالعَجلة فى اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفى الأولى قال ﴿ فَأَلْقِيهِ .. ⑦ ﴾ [القصص] ، أما فى الثانية فقال ﴿ فَاقْذِفِيهِ .. ㊴ ﴾ [طه] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقى التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذى قُدِّر له أنْ يتربّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعنى لم يكُنْ - عليه السلام - جميلاً تنجذب إليه الأنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. ㊴ ﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله[1] ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسَّكت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص[2] ،

---

(١) وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٣٧) أن « بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت (لها أم موسى) : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه » .

(٢) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشىء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت فى الحال فتشبثتْ به هى أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق ـ تبارك وتعالى ـ على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③﴾ [الجن]

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأبِ إلى الجبْن والخضوع ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه فى أى شىء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر فى وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

لَيسَ الشَّفِيعُ الذِى يأتيكَ مُؤتزراً ... مثْلَ الشَّفِيع الذى يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون فى هذا الوقت يُلقى الرعب فى النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[1] عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه] فماذا قال له ربه ؟ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه]

أى : أُوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده فى الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا

---

(١) فرط على القوم : ظلمهم وجاوز الحد فى الحكم . قال تعالى عن موسى وهارون ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتعدَّى علينا . [القاموس القويم ٢/٧٧] .

إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⑨﴾ [القصص] وقالت فى حيثـية أخرى : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ⑨﴾ [القصص] فلم يكن لهم بنون ، فـأرادوه أخاً للبنت ، وأرادته البنت صـيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتـقدير آخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ⑧﴾ [القـصص] لا ليكون قــرة عـين ، فـالـلام هنا فى ﴿لِيَكُونَ .. ⑧﴾ [القصص] لام العاقبـة يعنى : كان يفكر لشىء ، فجاءت العـاقبة بشىء آخر .

وفى هذا إشارة وبيان لـغباء فرعون والطمس على بـصيرته وهو الإله !! فبعد أنْ حـذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا التى رآها وعلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلـى حياته يرضـى أنْ يُربِّيه فى بيـته ، وهذا دليل صدْق قـوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ㉔﴾ [الأنفال]

ومعنى ﴿حَزَنًا .. ⑧﴾ [القصص] يعنى حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتى بالصيغتين .

وقـول الحق سـبحـانه : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧﴾ [القصص]

هم خاطئـون ؛ لأن تصرفاتهم لا تـتناسب مع ما عرفـوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا فى أمـر طفل جاء علـى هذه الحالة ، فـلا بُدَّ أن أهله قصـدوا نجاته من يد فرعون .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨ ﴾

معنى ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ .. ⑨ ﴾ [القصص] مادة قرَّ تقول : قرَّ بالمكان يعنى : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعنى : ثبات ، وتأتى قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قُرُّ والرِّيحُ يَا غُلاَمُ رِيحٌ صرّ
إنْ جلبْتَ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوى : أنْ تستقر العين على منظر أو شيء بحيث تكتفى وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعنى اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ⑬١ ﴾ [طه]

لذلك يُسمُّون الشيء الجميل الذى يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْنِى فى القَمَرِ فَنَالَ منِّى مَنْ نَظَر
يَا ليْتَ لائمى عذر فحُسْنه قَيْد النَّظرْ

أما الثبات الحسى فيعنى : ثبات العين فى ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المرأة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم

أنها تدعو له ، وهى فى الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعنى : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشئ بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىء بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذاَ قيلَ تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار فى المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة فى حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجى تقف حرارته الطبيعية عند ٣٧° ، فى حين أن الكبد مثلاً لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن ٩° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان فى جسم واحد ، فهى آية من آيات الله فى الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعنى : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمرّ وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفى موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لايجة) يعنى : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافى قُرَّة العين .

وقولها بعد ذلك ﴿لا تَقْتُلُوهُ.. (٩)﴾[القصص] تعنى : أنهم فعلاً هَمُّوا بقتله ، ففى بالهم إذن أن هلاك فرعون على يدى هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)﴾[القصص] يعنى : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا(١) إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى ﴿فَارِغًا..(١٠)﴾

---

(١) جاء فى تأويل هذه الكلمة عدة تأويلات منها :
- أى : خالياً من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .
- أى : فارغاً من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. (٧)﴾ [القصص] والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين . قاله الحسن وابن إسحاق وابن زيد .
- أى : فارغاً من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق . قاله أبو عبيدة والأخفش .
- أى : ذهب عقلها . قاله مالك . والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ، فإذا كان فارغاً من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول أبى عبيدة : فارغاً من الغم غلط قبيح ، لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. (١٠)﴾ [القصص] . [تفسير القرطبى ٥١٤١/٧] .

[القصص] أى : لا شىء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمى بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] يعنى : تكشف أمره ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التى تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا فى الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست ملْكاً لك .

وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التى تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشى عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] أى : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف :﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : الربْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هى التى تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذى لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ - أى : الذى لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعنى : من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شىء فارغ تماماً ، لابُدَّ أن يكون فيه شىء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى :﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ.. (٤٣) ﴾ [إبراهيم] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. (١٠) ﴾ [القصص] يعني : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي[1] ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾ [القصص] لأن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[2] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾

قُصِّيه : يعني : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى أين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ (١١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : فقصَّته ؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

---

(١) قال ابن عباس : أي تصيح عند إلقائه : وا ابناه . وقال السدي : كادت تقول لما حملته لإرضاعه وحضانته : هو ابني . وقيل : إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول : هو ابني . [تفسير القرطبي ٧/٥١٤٢] .

(٢) القصُّ : اتباع الأثر . ويقال : خرج فلان قصصاً في أثر فلان وذلك إذا اقتص أثره . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامرى :﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أى : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ .. (١١) ﴾ [القصص] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فى حَاجَةٍ مُرْسِلاً فأرسِلْ حكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] يظن البعض أن جنب يعنى قريب منى ، وهذا غير صحيح ؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون فى مواجهتى ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ .. (٣٦) ﴾ [النساء] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا : (فلان تجنَّبنى ، أو فلان واخد جنب منى) أى : يبتعد عنى ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فالاجتناب يعنى : الابتعاد .

وفى تحريم الخمر قال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ(١) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً فى التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهى مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] لعلمتَ أنها أقوى فى التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرَّمْت عليكم الخمر يعنى : لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] يعنى : ابتعدوا عنها كليةً شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس فى مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

التحريم هنا لا يعنى التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائى يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و ﴿ الْمَرَاضِعَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

---

(١) الأزلام : جمع زَلَم : وهى قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح ، يُكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرّم شرعاً . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

واقرأ أول سورة الحج : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج]

المرضِع : التى من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التى تُرضع الآن فعلاً ، وعلى حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفى موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتى تذهل هى المرضعة لا المرضع .

والضمير فى ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. (١٢) ﴾ [القصص] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت فى مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) ﴾ [القصص] فقال لها : لابدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحونَ للملك مخلصون له[1]. وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾

وسبق أنْ وعدها الله :﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. (٧) ﴾ [القصص] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثانى ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص] لكن هذا فى مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

---

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم [تفسير ابن كثير ٣/٣٨١] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣) ﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب فى يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا ، ونُمهِّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص] يعنى : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

الأشُدّ : يعنى القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤) ﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكرى ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

أراد موسى - عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط فى بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بنى إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل فى الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس فى بيوتهم[1] .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : من بنى إسرائيل ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : الأقباط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ .. (١٥) ﴾ [القصص] أى : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطى وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدث هذه المسألة فى شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو توسِّطه فى أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أنْ يقضى لك حاجتك فتقول : « فلان قضالى كذا وكذا » وهو فى الحقيقة ما قضى فى الأرض إلا بعد أن قضى الله فى السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول فى هذه الحالة : قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قُلْنا - يكرهون بنى إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما

---

(١) قاله سعيد بن جبير وقتادة . وقاله ابن عباس أيضاً ، وفى رواية عنه : هو بين العشاء والعتمة . [تفسير القرطبى ٧/٥١٤٦] .

قتلَ موسى القبطى زاد غضبهم وكراهيتهم لبنى إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [القصص]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾

يُعلمنا موسى - عليه السلام - أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغى عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .. (١٦)﴾ [القصص] يعنى : يا ربِّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. (٢٣)﴾ [الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء] وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)﴾ [ص] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتى بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن افْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ [القصص] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع فى المعصية إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى فى معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً فى أنه لن يُطرَدَ من رحمة الله ، لأن رحمة الله واسعة تسَع كل ذنوبه مهما كثُرتْ .

لذلك يقول تعالى فى مشروعية التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة] والمعنى : شرع لهم التوبة ، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ[1] فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾

قوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٧) ﴾ [القصص] يعنى : بالمغفرة وعذرتنى وتُبْت علىَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص] أى : عهد الله علىَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : من المعرفة والحكمة والتوحيد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥١٤٨/٧) وقال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٢/٣) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة » .

(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حين كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يُسمَّى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى قتل الذى لم يحل له قتله . [القرطبى فى تفسيره ٥١٤٨/٧] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى : بعد أن قتل موسى القبطىَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]

ينظر فى وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه[1] ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذونى ، فلو جلس قوم فى مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شيء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللى على راسه بطحة يحسس عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] استصرخ يعنى : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسبق أنْ تكلَّمنا فى همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعنى استنجد بأحد فأصرخه يعنى : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخى .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أوقعه فى هذه

---

(١) قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث الناس به . [تفسير القرطبى ٧/ ٥١٥٠] وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/ ٤٠٠) .

الورطة بالأمس ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) ﴾[القصص] تريد أنْ تُغويَني بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كان موسى - عليه السلام - ليقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين[1] .

﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ[2] يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ (١٩) ﴾

قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا .. (١٩) ﴾[القصص] يعنى : أن موسى حَنَّ مرة أخرى للذى من شيعته وهو الإسرائيلى وناصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المرة واجهه ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. (١٩) ﴾ [القصص] فهو يعرف ما حدث من موسى ، وما داموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينتقموا منه .

وقوله تعالى :﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) ﴾ [القصص] إنْ هنا نافية يعنى : ما تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلنى اليوم .

إذن : عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسعى

---

(١) نص حديث لرسول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) القائل هنا هو : الإسرائيلى الذى من شيعة موسى والذى كان قد استصرخه بالأمس . قال سعيد بن جبير : أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده ، لأنه أغلظ له فى القول ، فقال : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. (١٩) ﴾ [القصص] فسمع القبطى الكلام فأفشاه . [تفسير القرطبى ٥١٥١/٧] .

للإمساك به ، وفى هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسكوا به فيقتلوه[1] .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار فى طريق صادف أنْ يؤدى إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً

(١) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ذكره الثعلبى . وقيل : طالوت ذكره السهيلى . وقال المهدوى عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبى ٥١٥٢/٧] .

يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا - إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شىء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ٢٤٧/١] .

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ..(٢٣)﴾[القصص] أى : ما شأنكما ؟

وفى الاستفـهام هنا معنى التعجُّب يعنى : لـماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وقولهما ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] يعنى : ينصرفوا عن الماء ، فصـدر مقابل ورد ، فالآتى للمـاء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أى : بذاته ، وأصدر يُصْدر أى : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] جـمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة فى خـروجهـما لسـقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾

مـعنا ـ إذن ـ فى هذه القـصـة أحكام ثلاثة ﴿لا نَسْـقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ..(٢٣)﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمـجتمع المسلم مسـألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن **الحكم الأول** نعلم أن سَقْى الأنـعام من عمل الـرجال ، ومن **الحكم الثـانى** نعلم أن المرأة لا تخرج لـلعمل إلا للضـرورة ، ولا تؤدى مهـمة الرجل إلا إذا عـجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

أما **الحكم الثالث** فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها فى السيارة ، ثم سرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفى قوله تعالى : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فكان موسى ـ عليه السلام ـ طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣] .

للمـرأتين تولَّى إلى ظلٍّ شجـرة ليستـريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعـاء
﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

كأن الحق ـ سبحانه وتعـالى ـ يريد من الضعيف أنْ يتـجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليهـا فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿ رَبِّ .. (٢٤) ﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُـلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتـضى معبـوداً ، له أوامر ونواه ، أمّا الرب فـهو المـتولِّى للتربيـة والرعاية ، فـقال : يا رب أنا عبدكَ ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿ أَنزَلْتَ .. (٢٤) ﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحـقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عـبد مـثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خـير فى الدنيـا لا بُدَّ أن يـنتـهى إلى الله المنعم الأول ، وضـربـنا لذلك مـثـلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتَة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمـد لله) صيغة العموم فى العـموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فـأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمـد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسبـاب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضـهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس(١) .

ذلك لأن أَزمّة الأمور بيده تعـالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبـحانه القـادر وحده على تعـطيل الأسباب ، وأذكـر أن بعض

(١) أخـرج أحـمـد فى مسنده (٢/٢٥٨) ، والتـرمـذى فى سننه (١٩٥٤) مـن حـديث أبى هريرة رضى الله عنـه قال قـال رسـول الله ﷺ : « من لا يشكـر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إلىَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى - عليه السلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ(١) قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿ إِحْدَاهُمَا .. (٢٥) ﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥) ﴾ [القصص] يعني : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. (٢٥) ﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها ، قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب - مادة : سلفع] .

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] وهى سبب من الأسباب يَمُدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا فى وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة فى الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيرى خلفى ودُلِّينى على الطريق(١) .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ..(٢٥)﴾ [القصص] أى : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : ما كان بينه وبين القبطى ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص] يعنى : طمأنه وهدَّأ من روْعه .

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. (٢٦)﴾ [القصص]

وفى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لتقرَّ فى بيتها .

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذى عرضته على أبيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص] وهذان شرطان لابدَّ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٥) وعزاه للفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب .

منهما فى الأجير : قوة على العمل ، وأمانة فى الأداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفى هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتى دور الأب ، وما ينبغى له من الحزم فى مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفى بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية لوجوده فى بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾[1]

فى الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن

(١) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبى هريرة قال ، قال ﷺ : « قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٤١٠) وعزاه لابن مردويه . وأورد نحوه أيضاً من حديث أبى ذر وعزاه للبزار وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح ـ وإنْ كان القلة يفعلون ذلك ـ وهذه الحكمة من الأب فى أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سوىَّ الدين ، سوىَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعى ـ كما نقول ـ دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفى هذه الحالة على الأب أنْ يُجَرِّىء الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقى إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧)﴾ [القصص] فهذا شىء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفى مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّى عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ .. (٢٣٥)﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التى تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧)﴾ [القصص] أى : تكون أجيراً عندى ثمانى سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلى من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى : أنا بالخيار ، أقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص]

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، أو تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]

لكن يروى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعنى : أنْ آكل من طعام. كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] أى : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِه .. (٢٩) ﴾ [القصص] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشىء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] يعنى : أبصر ورأى أو أحسَّ بشىء منْ الأُنْس ، ﴿ الطُّورِ .. (٢٩) ﴾ [القصص] اسم الجبل ﴿ قَالَ لأَهْلِه امْكُثُوا .. (٢٩) ﴾ [القصص] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [القصص] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا ـ إذن ـ أمر خاص به ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩) ﴾ [القصص] يعنى : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص]

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤٠٧/٦) عن أبى حازم وعزاه لابن عساكر . بنحوه .

﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص]

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أى : تستدفئون بها ، وفى موضع آخر قال ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..﴿٧﴾﴾ [النمل] يعنى : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم - إذن - على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى فى مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفى موضع آخر[1] لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿امْكُثُوا ..﴿٢٩﴾﴾ [القصص] وهذا من المآخذ التى يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام فى مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعى حين يقول لها : إنى رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركنى وحدى فى هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] إذن : لابُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك فى : ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾﴾ [النمل] وفى مرة أخرى ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] قالوا : لأنه لما رأى النار قال ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾﴾ [النمل] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك ، فقال ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] على سبيل رجاء غير المتيقن .

---

(١) وذلك فى سورة النمل . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل]

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا:﴿ من شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ من الشَّجَرَةِ.. ﴿٣٠﴾ ﴾[القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰ إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب فى كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتى الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب - تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفىء النار برطوبتها(١) . فهى - إذن - مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فَهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بكر الثقفى قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهى خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤١٣) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] وقُلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شيء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشيء الواحد ، فهى فى خِفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١)﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١)﴾ [القصص] يعنى : ارجع ولا تخَفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التى يجب أن تصاحبه فى كل تحركاته فى دعوته ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك فى هذا الموقف إنما ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص]

يعنى : هى قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك فى مَعيّة الله ، ومَنْ كان فى معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده فى جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التى رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى ـ عليه السلام ـ هى معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب فى وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله فى معيَّته وحفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾[النمل]

وقـد قُصَّ هذا كله على نبـينا مـحـمـد ﷺ ، فانتـفع به ووثق فى نصـر الله ، فلمـا قال لـه الصِّديق وهـما فى الغـار : يا رسـول الله ، لو نظر أحـدهم تحت قدميْـه لرآنا ، قال ﷺ : « يا أبا بكـر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠) ﴾ [التـوبة] ومـا دُمْنا فى مـعـيَّـة مَنْ لا تدركـه الأبصـار ، فـلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق - تبـارك - وتعالى - مـوسى عليه السـلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٣٢) ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ..(٣٢) ﴾ [القصص] يعنى : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] الجيب : فتـحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَـيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال فى داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده فى قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحـيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآنى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخلها تخرج هى بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت فى الإدخال ، أما فى الإخراج فهى لقدرة الله .

وكلمة ﴿بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى : مُنوّرة دون مرض ، والبياض لا بُدّ أن يكون عجيباً فى موسى ـ عليه السلام ـ لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعى مُعْجِز .

وقوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. (٣٢)﴾ [القصص] الجناحان فى الطائر كاليدين فى الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسىء التصرف تضرب صَدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقى[١] ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿فَذَانِكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتى العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى ربك الحق ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ.. (٣٢)﴾ [القصص] الرب الباطل ، ولا يمكن

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٧٠) قال : « قال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب » .

أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ⑱﴾ [الأنبياء]

والبرهان : هو الحجة والدليل على صدْق المبرهَن عليه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .. ㉜﴾ [القصص] ، لأنَّ فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ㉜﴾ [القصص] أى : جميعاً فرعون والملأ ﴿فَاسِقِينَ ㉜﴾ [القصص] أى : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقت الرُّطَبَة يعنى : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الدينى الذى يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سوْءَته .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ㉝﴾

فما زال موسى - عليه السلام - خائفاً من مسألة قتْل القبطىِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ㉞﴾

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى - عليه السلام - وهو صغير فى بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة فى لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أنْ يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي.. (٣٤)﴾ [القصص] يعني : : معيناً لي حتى لا يُكذّبني الناس ، فيكون رسولاً مِثْلي بتكليف من الله .

لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فَهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

وجاء في قول فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حِدَة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه(١) ، والمؤمِّن أحد الدَّاعِيَيْن .

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أجابه ربه : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] لأن موسى قال في موضع آخر : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٢) ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه] وقوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شيء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] هذه هي القوة المعنوية ، وهي قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] أي :

---

(١) عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمِّن هارون عليه السلام ، فذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٣٨٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ .

(٢) الأزْر : القوة . وآزره : قوَّاه . [القاموس القويم ١/١٨] .

نُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهى بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل الباطل ، وفرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهى المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿بِآيَاتِنَا .. (٣٥)﴾ [القصص] بين العبارتين : ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] و ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] فهى إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهى كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذى لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذى ترعاه الماشية فى الصحراء[1] .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ... وَيرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِى

(١) قال أبو إسحاق : قد قيل إن النجم يُراد به النجوم ، قال : وجائز أن يكون النجم ههنا ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء . ويُقال لكل ما طلع : قد نجم . [لسان العرب - مادة : نجم] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] أى : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿مَا هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى آبَائِنَا الأَوَّلِين ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص]

لذلك يُعلِّم الحق - تبارك وتعالى - موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُنَاس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد أَلِفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما أَلِفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما أَلِفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفى أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذى عاشوا فى ظله ، فإنْ زِدْتَ فى القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعنادًا فى الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : اعذروه فيما يلاقى حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿ مَا هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) ﴾ [القصص] فقابلهم أنت باللين .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٣٧) ﴾

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى ـ عليه السلام ـ فلم يرد عليهم بالقسوة التى سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبق ، وبهذا الإيحاء : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : إنى جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾ [القصص] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ أنتم الظالمون . لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] الدار يعنى : الدنيا . وعاقبتها تعنى : الآخرة .

وهذا الأدب النبوى فى الجدل والحوار رأيناه فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذى أحبوه وألفوه إلى الحق الذى يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك فى أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/١١٧) عند قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] وعزاه لابن عباس (أخرجه ابن مردويه والضياء فى المختارة) وأورده أيضاً (٣/٤٨١) عن عبد الله بن مسعود : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر .

ورحم الله شوقى الذى صاغ هذه المسألة فى عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكى يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذى يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو[1] مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطىء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذنى أولاً وأدركنى ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان .

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما فى قصة نبى الله نوح عليه السلام ، والذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبى صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التى تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه فى الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّى نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان فى علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح فى دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ فى هدايتهم ، فقال :

---

(١) الأَسَا : المداواة والعلاج . والإساء : الدواء بعينه . [لسان العرب ـ مادة : أسا] .

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِـرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

ومحمـد ﷺ يقول فى محاورته مع كـفار مكة : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

سـبحـان الله مـا هذا التـواضع ، وهذا الأدب الجم فى اسـتمـالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيُسمِّى إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾

خشى فرعون من كلام موسى على قـومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كـمـا نقول (غـسـيل مخ) فـأراد أن يُذكِّرهم بألوهـيتـه ، وأنه لم يتـأثر بما سمع مـن موسـى ﴿يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص] يعنى : إياكم أنْ تصدّقوا كلام موسـى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيرى .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما بها أحد . [لسان العرب ـ مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالى . [القاموس القويم ١/٣٧٣] وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ..(٣٨)﴾ [القصص]
وفي موضع آخر قال : ﴿يَـٰهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧)﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضى قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذى يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل فى هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفّهم ولعب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التى نراها ونبنى بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التى بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾

أى : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمته ذاتية فيه ، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، كما يقولون (اللى يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك فى دواعى الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان ... إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول فى الحديث القدسى :

« الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[(١)] .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوى) فى ظل كبرياء الله الذى يحمى تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لَتكبَّر بشىء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك . وعندنا فى الأرياف يقولون : (اللى يرمى أخاه بعيب لن يموت حتى يراه فى نفسه) .

والمتكبّر فى الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده فى الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش فى ظلاله

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق - تبارك وتعالى - نفسه بأنه العظيم المتكبّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾ [القصص] فاستكبارهم فى الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ - كما نقول - لهم رَجْعَة .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ (١) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) ﴾

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنودَهُ .. (٤٠) ﴾ [القصص] أى : جميعاً فى قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [القصص] ألقينا بهم فى البحر ، وهذا الأخذ الذى يشمل الجميع فى قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوى العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

---

(١) أى : طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يُقال له : إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبى ٥١٧٥/٧] والقلزم هى مدينة السويس حالياً ، وبحر القلزم : هو البحر الأحمر .

ولم يُوصَف أَخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى[١] يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص] أى : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى - عليه السلام - وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيُصحِّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق - تبارك - وتعالى - يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه]

وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثم يتركه ، ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس]

وتأمَّلْ قدرة الله التى أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقتْه أمه بيديها فى الماء ، وأغرقتْ فرعون .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

---

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] . يقول صاحب ظلال القرآن (٤/٢٣٠٤) : « قد ورث يحى أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة » .

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا فى الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبِّهه وأن يُذكِّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له فى الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين فى الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى فى حَقِّ نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وعندها أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة فى ذريته من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا فى أهل الخير ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك لما دعا نوح - عليه السلام - ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة فى الشر ، كهذه التى نتحدث عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ .. (٤١) ﴾ [القصص] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٦١) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٣) من حديث جرير ابن عبد الله رضى الله عنه .

ويقول تعالى فى أصحاب القدوة السيئة : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

فكان فرعون وملؤه أسوة فى الشر ، وأسوة فى الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون فى الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١)﴾ [القصص]

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ .. (٤٢)﴾ [القصص] يعنى : جعلنا من خلفهم ﴿فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً .. (٤٢)﴾ [القصص] فكل مَنْ ذكرهم فى الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاق وخالد فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أى : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أى : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية فى جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص] أى : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس]

ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦)﴾[آل عمران]

ويقول : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه]

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومنَ أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهى أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبخيلِ عَلَى أَمْواله عِلَلٌ   زُرْق العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك نقول فى لغتنا العامية : (العفاريت الزرق) ونقول فى الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر[1] :

أَيَقْتُلُنِى والمْشرَفِىُّ[2] مُضاجِعى   ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأنْيابِ أَغْوالِ[3]

(١) الشاعر : هو امرؤ القيس .

(٢) السيوف المشرفية منسوبة إلى قرىً من أرض اليمن ، وقيل : من أرض العرب تدنو من الريف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

(٣) قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان) (٦/١٥٨) تحقيق عبد السلام هارون : « الأغوال : اسم لكل شىء الجن يعرض للمسافرين ويتلوّن فى ضروب من الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » . والبيت فى ديوان امرىء القيس ٣٣ ، والكامل للمبرد (٢/٧٩) ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى ـ ص ١١٢ .

أما السواد فيُقصد به الوجه المشوّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيراً ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى - عليه السلام - جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقى من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى ـ عليه السلام ـ برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل فى مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى فى مسألة القتال فى عهد موسى عليه السلام : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة] إنما فى عهده وعصره ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :
- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠)﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فالقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠)﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠)﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم . [تفسير ابن كثير ٤١٣/٣] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[(١)]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوِى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله ـ يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول ـ يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فلَهُ أجران ـ أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى ـ له ما لنا وعليه ما علينا »[(٢)] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ** .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ **بَصَائِرَ لِلنَّاسِ** .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةً** .. (٤٣) ﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٠٨/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٨/٧) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ [القصص]

والتذكر يعنى : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهى ليست جديدة عليك ، هذه القضية هى الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : فى الفطرة السليمة المركوزة فى كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٤٤) ﴾

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. (٤٤) ﴾ [القصص] أى : الجانب الغربى من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذى كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها فى كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعلَم عنه أنه جلس فى يوم من الأيام إلى مُعلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته فى حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] ردَّ القرآن عليهم فى بساطة : ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين[2] تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التى بُعِث فيها رسول الله أمة أمية ، فممَّن تعلَّم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذمَّة ، فهى ميزة فى حق رسول الله ﷺ ؛ لأن الأمى يعنى المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل] ونقول فى المثل (فلان زى ما ولدتْه أمه) يعنى : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة فى عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفدْ من خبرات الحياة .

---

(١) ألحد إلى الشيء : أشار إليه . ومعناه : أى : لسان الذى يشيرون إليه أعجمى لأنهم كانوا يقولون : إن الرسول يعلمه رجل أعجمى . [القاموس القويم ٢/١٨٩] .

(٢) قال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبى ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون : يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٧) .

أما الأمية عند رسول الله فشرف ؛ لأن قصارى المتعلِّم في أيِّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرف من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر في علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التي لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا في نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية ، كما قالوا بعد انتصارنا في أكتوبر ، وبعد أنْ رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا في أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا في جرائدنا من يقول : إنه نصر حضاري ، وفي نفس اليوم فُتحت الثغرة في (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا : لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم ؟ وماذا يضايقكم في نصر جاء بمدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضاري وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذي اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء في فتح الطريق في (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذى نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التى لم تَأْتِ اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم فى حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادى بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر : ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] يعنى : حضره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا** .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : مقيماً ﴿ **فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحِّح له

﴿ وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص] أى : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : موسى عليه السلام ﴿ وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٤٦) ﴾ [القصص] أى : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) فى مواضع عدة فى القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها فى كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكرت فى كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه ﷺ حُجُب الغيب ، والشىء يغيب عنك إما لأنه ماض ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضى ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة فى

كتاب أو التعلم من مُعلِّم ، وقد نفى الله تعالى هذا بالنسبة لرسوله ﷺ ، وإما أن يكون الحجابُ حجابَ الزمن المستقبل والأحداث التى لم تأتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذى يعلمها أزلاً .

لذلك يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى] فكان النجم من القرآن ينزل على رسول الله فلما يُسرى عنه يُمليه على أصحابه ، كل آية فى مكانها وترتيبها من السورة[1] ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تستطيع أن تتحدَّى أىَّ شخص بأن يتكلم مثلاً لمدة ثُلث الساعة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أما المسألة مع سيدنا رسول الله فتختلف ؛ لأنها من الله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ ﴾ [الأعلى]

وقلنا : إن سيدنا رسول الله ﷺ فى أول نزول القرآن عليه كان يُردد الآية خلف جبريل عليه السلام مخافة أن ينساها ، فإنْ قال جبريل : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] قال رسول الله ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ﴾ [القيامة]

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ۝١١٤ ﴾ [طه]

أى : أرح نفسك يا محمد ، ولا تخْشَ النسيان ، وانتظر حتى تنتهى الآيات ، وسوف تعيدها كما هى ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

---

(١) قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . أورده السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١ /١٧٢) .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⟨٨⟩﴾ [النحل] ولو انتهتْ الآية إلى هذا الحدِّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ .. إلخ .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يكمل الآية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾ [النحل] ليجعل فى القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ⟨٣٦⟩﴾ [يس] فكلُّ شىء فى الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التى لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ⟨١⟩ غُلِبَتِ الرُّومُ ⟨٢⟩ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ⟨٣⟩ فِى بِضْعِ سِنِينَ .. ⟨٤⟩﴾ [الروم]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ وبعد ذلك يُصدِّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ⟨٤⟩ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ⟨٥⟩﴾ [الروم]

ولما تشوَّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ⟨٢٧⟩﴾ [الفتح]

فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد ٢٢ كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة فى العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية فى ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعنى قف عند حدِّك - إنه رسول الله[1] .

ولما أصر على بن أبى طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : « يا على ستُسام مثلها فتقبل »[2] ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى علىٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر علىّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى علىّ : هذا ما تعاهد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع علىٌّ قول رسول الله : « ستُسام مثلها فتقبل » .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥ ، ٣٣٠) ضمن حديث طويل فى صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم .

(٢) وقد استشهد على بن أبى طالب بهذا فى محاجته للخوارج الذين خرجوا عليه وعتبوا عليه أنه كاتب معاوية فكتب على بن أبى طالب مجرداً من كونه أمير المؤمنين فقال : « قد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال : كيف تكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً » . (البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٩١) .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضى ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** .. ⟨٨⟩ ﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما فى نفوس القوم .

وفى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة الوحيدة التى لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التى حضرها رسول الله ، أما فى مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو فى المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه فى المدينة بما يجرى فى مؤتة وكأنها رأْىُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⟨٤٧⟩ ﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿ **رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ**

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

﴿... الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام فى الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر ـ رضى الله عنه ـ .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿ لَوْلا .. (٤٧) ﴾ [القصص] تأتى بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهى حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. (٤٧) ﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية فى الآية ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ(١) تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٤٨) ﴾ [القصص] أى : الرسول الذى طلبوه ﴿ قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. (٤٨) ﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.
الثانى : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .
الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص] والآن تطلبون آيات حِسِّية كالتى أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد ﷺ كانت آيات حسِّية كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهى بانتهاء وقتها ، فهى مناسبة للرسل المحدودى الزمن ، والمحدودى المكان .

أما الرسول الذى أُرسِلَ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان ، فلا تناسبه الآية الحِسِّية الوقتية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ؛ لذلك جاء الحق ـ تبارك وتعالى ـ على يد محمد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد ﷺ كان الرسول يأتى بمعجزة تثبت صِدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد ﷺ فجاءت معجزته هى عَيْن الكتاب والمنهج الذى أُرسِل به ليظل الدليل على صِدْقه باقياً مع المنهج الذى يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبرنا بها فى القرآن الكريم ، فللقرآن الذى جاء معجزة ومنهجاً الفضل فى إبقاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ .. (٤٨)﴾ [القصص] ثم يحكى ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أى : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد ﴿تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] علينا يعنى : تعاونا ، وهى مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقى السحرة ساجدين ؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾

معنى ﴿قُلْ .. (٤٩)﴾ [القصص] أى : فى الردّ عليهم ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ

مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص] أى : أهدى من التوراة التى جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذى جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : لو جئتُم به لاتبعته .

وهذا يعنى منهجين : منهج حقٍّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدى من سيدنا رسول الله للكفار يعنى أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتى من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أَهْدى من كتابه يطمعهم فى طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التى لم ينطق بها رسول الله . وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟

إذن : يقول لهم : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتَم الرسل ، فلن يأتى رُسُل بعده ، بحيث يأتى الرسول فتستدركوا عليه فيأتى آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنّن سيأتى بالمنهج الذى يخدم مذهبه ، ويُرضى هواه .

لذلك نقول : ينبغى فى المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُسْتدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر فى أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التى وُضعت فى الماضى لم تَعُدْ صالحة الآن ينادى الناس كثيراً بتعديلها ، حيثَ طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط فى المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ،

ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته فى الحياة ؛ لذلك يجب ألاَّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشترَط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشىء مما يشرع .

وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنِّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أىّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة فى التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذى قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذى قنّن لأول مُقنِّن هو الذى خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يَأْتهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق - تبارك وتعالى - على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : الكلام عندهم ليس فى الكتاب ، إنما فيمن أُنزِل عليه

الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .. (٥٠) ﴾ [القصص]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥٠) ﴾ [القصص] يعنى لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [القصص] أى : اتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

فنحن فى هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم فى الطاعة والعبادة : اللهم إنِّى أخشى ألاَّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندى .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة فى الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات فى الأحداث موجودة فى الكون .

وقد عبَّر المتنبى[2] عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغى الحياةَ لنفسه ... حَرِيصاً عَليها مُسْتهاماً بها صبًّا

فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أَوردَهُ الحَربَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه للحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقى بنفسه فى معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هى حياة الشهيد .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » . (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) أبو الطيب المتنبى هو : أحمد بن الحسين الكندى ، الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، له الأمثال السائرة والحكم البالغة ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى « كندة » ونشأ بالشام ، تنبأ فى بادية السماوة ، وقُتل عام ٣٥٤ هـ على يد جماعة خرجوا عليه بالطريق . [الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ فى الوُجودِ يطلبُ صَيْداً　　غـيـر أنَّ الشِّـبـاكَ مُختلفَــات

فالرجل الذى يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفـيه قـال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨ ﴾ [الحشر]

نقول : هذا آثر الفـقير على نفسـه ، لكنه من ناحية أخـرى يبغى الأجر ويطمع فى عَـشْرة أمثال مـا أنفق ، بل يطمع فى الجنة ، إذن : المسألة فيهـا نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنهـا أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانيـة حمقاء ، الدين يرتقى بصاحبـه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسـرق . وحين يأمرك بغضٍّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرتَ إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهى فلا تَنْسَ ما أعطاك .

لذلك حين نتـأمل النبى ﷺ وهو يعالج داءات النفوس حـينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكى إليه ضَـعْفه أمام النسـاء ، وقلة صبـره على هذه الشهـوة ، حتى قال له : يـا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، ومع ذلك لم ينهـره رسـول الله ﷺ ، بل علم أنه أمام مـريض يحـتاج إلى مَنْ يعـالجه ، ويسـتل من نفسـه هذه الثورة الـجامـحة ، خـاصة وقـد صارح رسـول الله بمـا يعانى فكان صـادقـاً مع نفسـه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسـول الله ، وقـال له : يا أخـا العــرب ، أتحب ذلك

لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب فى كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

عندها قال ﷺ : « كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم »(١) .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شيء أبغض إلىَّ من الزنا بعدما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بى شهوة ذكرتُ قول رسول الله فى أمى ، وزوجتى ، وأختى ، وابنتى .

فالذى يُجرِّئ الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر فى العواقب ، وكذلك يزهدون فى الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسى ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضى شهوته فى الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقى بنفسك فى هذا (الفرن) بعد أن تُنهى ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [القصص] وفى مواضع أخرى : ﴿ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] ، ﴿ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية لأحد إلا بسبق شيء منه ، والمراد بالهداية هنا - أى : هداية الإيمان والتقوى - وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قرب النبى ﷺ أن يتناولوه. فقال النبى ﷺ : دعوه . ثم قال له النبى ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك ؟ قال : لا ، قال : فابنتك ؟ قال : لا . فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا ، فقال النبى ﷺ : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٣٩٧/٢) وعزاه لابن جرير الطبرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَصَّلْنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] أى : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلين بهدى الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التى أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿ كَذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التى سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذُكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن لِيُسلِّيه ، ويُسرِّى عنه ما يلاقى من خصومه .

وحكمة أخرى فى قوله : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فكلما نزل قسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجدّ عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة ؟

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ ولا يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان]

وقد ورد الفعل يسألونك فى القرآن عدة مرات فى سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملةً واحدة ، ثم سبحان الله هل أطقتموه مُنجَّماً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿ لعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ [القصص] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء فى كتابك ذُكر فى كتبهم وذكرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب فى معرفة الحق الذى جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

ويقـول سبحـانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتـاب الصادقـون مع أنفسـهـم ومع كتبـهـم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسـالة مـحـمد ﷺ ، أما الذين لم يـؤمنوا فحجـبتـهم السلطة الزمنية والحـرص على السيادة التى كـانت لهم قبل الإسلام ، سـيادةً فى العلم ، وفى الحرب ، وفى الثروة .

وكان من هـؤلاء عبد الله بن أُبَـىٍّ ، وكان أهل المـدينة يستـعدون لتنصيبه مَلِكاً عليـهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليهـا أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعنى أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال قتـادة : أنها نزلت فى عبد الله بن سـلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمـان الفارسى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسـير القرطبى ٥١٨٣/٧] وقال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علمـاء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعـفر بن أبى طالب المـدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحـبشة ، وثمـانية نفـر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى - عليه السلام - فلا يستبعد عقلاً أنْ يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أُمىٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَة - جارية - فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »[١] .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن فى الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء فى الإيمان الثانى ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هى حيثية ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص]

وكما أن الله تعالى يُؤتِى أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتِى بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم - كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذى باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ يُقيم ظباه[1] أَخْدعَى[2] كلِّ مائلِ
فَهَذا دَوَاءُ الدَّاء من كُلِّ عَاقلٍ وذَاك دَوَاءُ الدَّاء من كُلِّ جاهلِ

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿ أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرىء يقرأ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعان وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[3] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .

(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قـتادة بن النعمان ، فلما افتـقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه فى كـيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمـين اليهودى فاتهمه بـسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فـقصَّ اليهودى مـا كان من أمر طُعْمـة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحـبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودى ، وفعلاً عـرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فـيه حـلاً يُخرجـه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يسـتبـعدون أنْ يسرق ابن أبيرق[1] .

وجلس رسول الله يفكر فى هذا الأمر ، لكن سـرعان ما نزل عليه الوحى ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** (١٠٥) ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى فى حقِّه ، ووصـفتْه بأنه خوّان أى : كـثير الخيانـة وبرَّأتْ اليهودى ، وصـححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون مـن فضيحـة المسلم بالسـرقـة ، وغـفلوا عن الأثـر السىء لو قلـبوا الحـقـائق ، وأدانوا اليهودى .

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصـابة فى تمييز الصحابة » (٣/٢٨٥) (ترجمة ٤٢٣٨) : « ذكره أبو إسحق المستلمى فى الصحـابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم فى إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام فى نظر الجميع : المسلم واليهودى وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام فى نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذى يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذى شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهى الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥) ﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغى على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] أي : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية[1] : لما استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا بها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من ركْب - وهم الجماعة يأتون في مهمة - أرسلكم من خلفي - يعني : النجاشي - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (٥٥)﴾ [القصص]

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص] لنا أعمالنا الخيِّرة التي يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التي ينبغي أنْ تُترك ، فكلٌّ منَّا له شَأْن يشغله .

﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٥)﴾ [القصص]والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعني : إنني ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير في تفسيره (٣/٣٩٣) وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبي في تفسيره (٧/٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق في السيرة .

والسلام - وبين عمِّه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى .. (٤٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌّ بدعوته لعمه أبى طالب الذى ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمى رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة فى الإسلام ، ولله تعالى حكمة فى أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشىء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : « يا عمٍّ ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة »

---

(١) سبب نزول الآية : قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) .

وقاله ابن عباس (أخرجه ابن مردويه) ، وابن عمر (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود فى القدر) ، وقتادة (أخرجه عبد بن حميد) أورد كل هذه الأقوال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٢٩) .

فقال : يا ابن أخى ، لولا أن قريشاً تُعيِّرنى بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها[1] .

لكن يُرْوى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التى طلبتَ من عمِّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا فى معنى الهداية ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ..(٥٦) ﴾ [القصص] وقلنا : إنها تأتى بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أى : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هدايةً أخرى ، هى هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] ؛ لذلك حُرِموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ..(٥٦) ﴾ [القصص] هى هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه ﷺ هدى الجميع هدايةَ الدلالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥) كتاب الإيمان ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٤٤) ، والواحدى فى « أسباب النزول » ص ١٩٤ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبى ﷺ : إنّا لنعلم أن الذى تقول حقّ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٥١٨٦/٧) .

أمـوالهم أو فى أنفـسـهم - على فـرض أن هذا صـحـيح - قصـارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فان من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشـر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حـيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أمـا إنْ ظلُّوا على كـفـرهم ، فـمـتـاع قليل فى الدنيـا الفـانيـة ، ولا نصـيبَ لهم فى الآخرة البـاقـية . إذن : فـأىُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طـريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسـول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قـال إنكـم إن اتبـعـتم الهـدى مع رسـول الله تُـتـخـطَّفـوا وتُضطهـدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا محمد : كـذبتم ، فلن يتخطفكـم أحد بسـبـب إسلامكم :﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مـشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحـاب بيته الحرام ، ووفَّر لكم رَغَد العيش وأنتم بواد غير ذى زرع حـيث يُجْبَى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع مـعكم هذا الصنيع أيترككم ويتـخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] استـفـهـام للتقـرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن فى المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤَمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه فى الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر فى هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً فى رمى الجمرات فى حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبِّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم - عليه السلام - نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

هذا يعنى أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفى الزرع يعنى عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ فى طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء فى سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها فى كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال :﴿ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ..** (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ **تَهْوِي إِلَيْهِمْ ..** (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس فى أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلى أو لا يُزكِّى . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ..(٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفِّر تكاليف الحج ، فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التى يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأىِّ بلد آمن لا تُقام إلا فى مكان يُؤَمِّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأىّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالى إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث فى الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث فى أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفى العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل فى الحرم .

وهذه الآية : ﴿ ومن دخله كان آمنا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعى لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التى كثيراً ما يُسأل عنها فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ.. (٢٦) ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتى كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلّف مدلولها .

فالمعنى فى الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى فى (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية فى صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعنى الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضى ، وأنت لا تدرى رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضى ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن فى قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا فى أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)[1] يعنى : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذى جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم فى رحلة الشتاء والصيف ، وأىُّ أمن ، وأىُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) ﴾

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٥٢/١) ، والذى قال للفيل : ابرك . هو نفيل بن حبيب الخثعمى . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقَّفة الرأس) لهم فى مراقِّه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .

كلمة ﴿ وَكَمْ (٥٨) ﴾ [القصص] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعنى : أنا لن أُعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت .لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون فى صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هى كثيرة . فكم هنا تعنى الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ (٥٨) ﴾ [القصص] من للعموم أى : من بداية ما يُقال له قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أى : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّب فى نعَمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة فى معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذى تأتى له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول فى العامية : أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة فى لغتنا العامية لكن لها أصل فى الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] أى : أسباب معيشتها ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٨) ﴾ [القصص] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ

يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفى آية أخرى يعالج الحق سبحـانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾[النحـل] يعنى : بطرت بنعمه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتـضى مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعـالى موجود ، لكن الكافـر يستـر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفـر نفســه دليلاً علـى الإيمان ، فـالإيمـان هو الأصل والكفر طارىء عليه .

ومـثـال ذلك قـولنا : إن البـاطل جُنْدى من جنود الحق ، فـحـين يستشرى الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقـول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفـاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمـراض هو المـرض الذى يتلصص على المـريض دون أنْ يُشعره بأىِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد اسـتفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه - والعياذ بالله - المرض الخبيث .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كـفروا بها أى : سـتـروها ، إما بعدم البحث فى أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا بهـا على العاجز الذى لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم

نعمه ويقطع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة فى التكليفات تُضعِف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقول : الحق ـ تبارك وتعالى ـ حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليفَ العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً فى صوم رمضان .

ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتى رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذى كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً تُشوِّق العبد إليها ، وتُعوِّده الانضباط فى أداء التكاليف .

ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن فى أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذى يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله فى القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إذن : لابُدَّ أن نُعلِم بالمنهج ، ويأتى رسول يقول : افعل كذا ،

ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نتركَ الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام.

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام . وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةٌ لهم على ما فعلوا .

والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن فى أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم فى الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان الذى تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة مَا لا يوجد فى النجوع والكفور والقرى الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنّ أُمّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] من أىِّ شىء من مُقوِّمات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه :
﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء]

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن

بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم فى الدنيا أنه إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك فى الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا - عَزَّ وجَلَّ - على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص]

﴿ خَيْرٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر قدرة الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وَأَبْقَىٰ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأنه دائم لا ينقطع . فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابى الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها[1] ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يُجرى هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى فتح البارى : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام ، وسبقه إلى ذلك الخطيب . لكن وقع التصريح فى حديث أنس (عند مسلم) أن ذلك كان يوم بدر .. فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين والله أعلم » .

[التوبة] إما أن نـنتصـر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خـيراتكم ، وإمـا ننال الشـهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربّص بكم إلا شراً .

وفى موضـع آخـر قال سبـحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾ [الأعلى] لذلك ذيَّل الآية هنا بقـوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] لأن العقل لو قارن بـين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

تُعد هذه الآية شرحـاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعـد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفـاء بوعده ، فإنْ كان الوعـد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعـالى فى العطاء ، ثم إنَّ وعده تعـالى لا يتخلف ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن مجـاهد قال : نزلت فى على وحـمزة وأبى جهل . وقـال السدى : نزلت فى عـمار والولـيد بن المـغـيرة . وقـيل : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جـهل . [أورده الواحدى فى أسـباب النزول ص ١٩٤] قـال القرطبى فى تفسيـره (٧/ ٥١٩٠) : « قال القشيرى : الصـحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعمـيم . وقال الثعلبى : وبالجملة فإنهـا نزلت فى كل كافـر مُتِّع فى الدنيـا بالعافـية والغنى وله فى الآخـرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة » .

لذلك قال ﴿ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيه .. (٦١) ﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١) ﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾[الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخّ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودى وأُوذى وهزِىء به وسُخر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خَصومه فبيَّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم فى مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهِب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. (٦٢) ﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثانى : أن الآية جاءت تسليةً لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأننى سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسى فى نفس المضطهد وفى نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التى تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّى عن نفسه ما يلاقى .

ومضمون النداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائى ويسكت ، إنما وصفهم ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء فى زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غَير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ .. (٦٦) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) ﴾

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووْهم ، ومعنى ﴿حقَّ عليْهِمُ .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَحقَّ عَلَيْنا قوْلُ ربِّنا إِنَّا لَذَائقُون (٣١)﴾ [الصافات]

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ووَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ [النمل]

لكن ، ما هو القول الذى وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندى فى الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان فى النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿ربَّنا هَـٰؤُلاءِ الَّذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا.. (٦٣)﴾ [القصص] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن تعترفون بعد أنْ سُلِب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التى كنت تبطش بها ، ورِجْلك التى كنت تسعى بها ولسانك .. كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿يوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ومعنى ﴿هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : المشركين ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : لنكون سواء ، هذه علَّة غوايتهم ، أن يكونوا فى الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسى لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون فى الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. (٨٩) ﴾ [النساء]

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم فى الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين]

وليت الأمر ينتهى عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] يعنى : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعدهم هذه المسألة وتُرضِى شيئاً فى نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولَّى ربه ـ عز وجل ـ الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة فى يوم بَاقٍ لا ينتهى فيه عذابهم :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يسترضى عباده المؤمنين : أيعجبكم

ما آلوا إليه ؟ أقَدرْنا أن نجازيهم على مـا اقترفوه فى حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان فى دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم فى دار الحق الباقية ، وهى سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] يعنى : حتى نكون سـواء ، لا يكون أحدنا أحـسن من الآخـر ، ومن هذا المنطلق أغـوى إبليسُ آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد مـن رحمة الله ، ومن الصفـائية التى كـان ينعَم بهـا مع المـلائكة . أراد أنْ يأخـذ آدم بل وذريتـه إلى هذا المصير ، فـقد حزَّ فى نفسه أن يلاقى هذا المصـير وحده ، فى حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجـد إبليس ـ لعنه الله ـ لا يكتـفى بأن تُغـوى ذريتـه ذريةَ آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البـعث ليباشر بنـفسه هذه الغواية ، فـهو (المـعلم) الكبيـر ، وكأنه يحذر أن إمكانـات ذريته فى الغـواية قد لا ترضـيه ؛ لذلـك يتولى بنفـسه هـذه المهـمة فـيقـول : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف] أن الله تعـالى أجـاب إبـليس إلى ما طلب ، لكن ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف] ليست إجـابةً ، إنما تقرير لشىء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظريـن فعلاً ، لماذا ؟ قـالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذى أغـوى آدم وأخرجـه من الجنة باقيـاً أمام ذريـته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذى أغوى أباكم آدم .

---

(١) أنظره : أخَّره وأمـهله وتأنَّى عليـه . وقوله : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخِّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

وقولهم : ﴿ربَّنَا هَـٰؤُلاءِ الَّذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] لنا وقفة مع ﴿هَـٰؤُلاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] وهى اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهى عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك فى هذا ، هذه ، هذان ، هاتان . فالهاء فيها للتنبيه لتنبه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شىء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبتَ ربك - عز وجل - فمن سوء الأدب أنْ تستخدم فى خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿ربَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿هَـٰؤُلاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب فى خطاب نبى الله موسى - عليه السلام - فيما حكاه عنه القرآن : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عزَّ وجلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿ربَّنَا هَـٰؤُلاءِ أَضَلُّونَا .. (٣٨)﴾ [الأعراف] ﴿ربَّنَا هَـٰؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا .. (٨٦)﴾ [النحل] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] الآن ينكُصون كما قالوا من قبل ﴿ربَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] يقولون الآن ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ .. (٦٣)﴾ [القصص] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب

وسَلْب الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له :
﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

وقولهم : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم فى انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهى يحول بين النفس البشرية وما تشتهى ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشيء ، فيسير فى حياته على هواه ، وهذه هى التى روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هى الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَنْ أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر :

* إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَهُ ؟ *

إذن : فهى كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء فى الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين »[1] .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنَّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هى الشياطين صُفِّدت وسُلْسلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سلْسلتها ؟ إذن : هى نفسك التى توسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع فى رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هى شهوة النفس .

وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ فى غيرها ، فهى من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أى وجه ، وبأىِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهى تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٨١) ، والنسائى فى سننه (٤/١٢٨) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

وسبق أن ناداهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص] أي : في زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] ولم يقُلْ شركائى ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿شُرَكَاءكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] أفي دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿شُرَكَاءكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] ؟ قالوا : الإضافة تأتى بمعانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أى : من قمح ، أو بمعنًى (فى) مثل : مكر الليل أى : مكر فى الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أى : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿شُرَكَاءكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] أى : من جنسكم أو فيكم يعنى : لا يتميز عنكم بشىء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُساوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يعنى : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿هَـٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. ﴿١٨﴾﴾ [يونس]

وقلتم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذى يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿فَدَعَوْهُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] لأنهم مشغولون

بأنفسهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يعنى : لو كانوا يهتدون بهَدْى الله ، وهَدْى رسوله ، ويرونْ العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة فى الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قال هنا أيضاً ﴿يُنَادِيهِمْ .. ﴿٦٥﴾﴾ [القصص] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللتوبيخ وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ .. ﴿٦٦﴾﴾ [القصص] أى : خفيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج]

وهؤلاء لا يتساءلون ؛ لأنهم فى الجهل سواء ، وفى الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾[عبس]

وكما سُئِل المشركون ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص] فى موضع آخر يسأل الرسل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩)﴾ [المائدة] أى : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم فى مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى فى خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]

فكيف يقولون ﴿لا عِلْمَ لَنَا .. (١٠٩)﴾ [المائدة] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق - تبارك وتعالى - هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية فى محكمة العدل الإلهى التى سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر]

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل

الأستاذ تلميذه ليقرّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن] أى : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الصافات] أى : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامى يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أخرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِ إئذن لى أنْ أغرِق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٤٣) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » ضعَّف إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (١/ ٢٨٦) .

ولو أُغلِق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَن اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتى الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربَّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين

قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا فى مسائل الآخرة وفى رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟!!

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : الاختيار فى مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون فى العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر - وأهواؤهم مختلفة - لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً فى الرغبات والأهواء ، بل وفى مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم فى سنٍّ واحدة ، وفى مركز اجتماعى واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾

ما تُكنُّ صدورهم أى : السر ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] والسر : ما تركتَه فى نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررتَ به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سِراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسره فى نفسك قبل أنْ يوجد فى صدرك ، وهو وحده الذى يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شىء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرىء آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى فى علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ .. (١٠) ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [الملك]

والآية التى معنا : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾ [القصص] وفى هذه الآيات قدّم السر على الجهر ، أما فى قوله تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)﴾ [الأعلى]

وقال سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا فى فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ فى نفسك شيئاً ، فربما ظهر فى سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررْته ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠)﴾ [محمد]

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز فى الجهر والملحظ الذى فاتهم تدبُّره ، لذلك امتنَّ الله علينا بعلمه للجهر من القول الذى لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة فى جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها فى الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقى فى مصرع كليوباترا ، لما انهزموا فى يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلى على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ ... كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأ الجوَّ هتافاً ... بحيَاتىْ قَاتليْه
أثَّر البهتانُ فيه ... وَانْطلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ مِنْ ببغاء ... عقلُه فى أُذُنَيْه

إذن : فَعلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص] ليُطمئن رسول الله ؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولى لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أَخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فأخبره ربه بما يدور حتى فى النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أننى سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصى عليهم كل شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⦗٧٠⦘﴾ [القصص] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحدَ يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل فى مسألة العبادة علانية و (نفاصل) : من صاحب هذه السلعة : أى يوم القيامة .

ومعنى ﴿الأُولَىٰ .. ⦗٧٠⦘﴾ [القصص] أى : الخَلْق الذى خلقه الله ، والكون الذى أعدَّه لاستقبال خليفته فى الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتى الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بنى آدم ، فقد سبقه فى الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ⦗١⦘﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهى تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير فى خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله فى كون أُعدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة فى ظهر أبيك ، ونطفة فى بطن أمكَ إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسِنّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج

النهائى فى تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد من حكمة الله تعالى ألاَّ يعطى الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أُكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولانْقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا فى الريف شجرة التوت أو شجرة المشمش مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذى يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿ وَالآخِرَةِ .. ۝٧٠ ﴾ [القصص] يعني : له الحمد فى القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠ ﴾ [يونس] فيحمد الله فى الآخرة ؛ لأنه كان يمتعنى فى الدنيا إلى أمد ، ويمتعنى فى الدنيا على قَدْر إمكاناتى ، أما فى الآخرة فيعطينى بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد فى الأولى ، والحمد فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠ ﴾ [القصص] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل فى الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ

مـا له وما عليـه ، فـلا تظن أن الذين آذوْك وظلمـوك سيُفلتـون من قبضتنا .

﴿ وَإِلَيْـهِ تُرْجَـعُـونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص] أى : للحـسـاب ، وفى قـراءة (تَرْجِـعُـون) لأنهم سـيرجـعـون إلينا ويأتوننا بأنفسـهم ، كـأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبـه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قـراءة ﴿ تُرْجَـعُـونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القـصص] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتـأبَّوْا علينا ، كـمـا تأبَّيـتُم على رسُلنا فى الدنيـا ؛ لأن الداعى فى الدنـيـا كـان يأخـذكم بالرفق واللـين ، أمـا داعى الآخـرة فـيجـمعكـم قَسْـراً ورَغْمـاً عنكم ، ولا تسـتطيـعون منه فكاكـاً ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

---

(١) يُدعون : أى يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

يُعدِّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نعمه على عبيده فى شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتى بالخير للناس ، والسكون يأتى بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطى ويتعب إلا بعد راحة ، والذى يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ [الليل]

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ فى نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى . كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿أَرَأَيْتُمْ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : طوال حياتكم ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، أمّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتى إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفى الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء فى سلامة لى ولها ، وإلاَّ لو سرْنا فى الظلام لتحطمنا أو حطّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير فى الظَلام إمّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء فى الماديات يكون كذلك له دور فى المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التى تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منكَ ، أو أنْ يُحطمك الأقوى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب]

والمراد : من ظلمات المعانى إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأننى لا أستغنى عنه لراحتى ، فله مهمة عندى لا تقلّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى فى وصفه لنوره عز وجل ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

نور مادى تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادى يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصى ، فلم يضنّ به على أحد من خَلْقه . أما النور المعنوى نور الهداية ونور اليقينَ والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَىْ رسلُه ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما فى الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥)﴾ [النور]

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] يعنى : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهى آية النهار : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧٢)﴾ [القصص] يعني : دائم لا نهايةَ له ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه ، ففى آية الليل قال ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وفى آية النهار قال ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] ذلك لأن العين لا عملَ لها فى الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما فى النهار وفى وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين فى قوله سبحانه :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ فى الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفى الآية ملمح بلاغى يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ثقةً منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، والنهار يقابل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص]

فاللفُّ أى : جَمْع المحكوم عليه معاً فى جانب والحكم فى جانب آخر ، والنشْر : ردّ كلٍّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالقى رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

فجمعتْ المحكوم عليه فى الشطر الأول والحكم فى الشطر الثانى ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفى جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك أنك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً فى حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتى الذى يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التى خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد فى نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أَعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان فى هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتَه ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء فى الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب فى كل قَدْر غير المطلوب فى القَدْر الآخر ، فليس فى الأمر تكرار ، إنما توكيد فى الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١٩٦/٧) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويُبكِّتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] حين يُقال لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

أى : أخرجنا من كل أمة نبيّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥)﴾ [القصص] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾ [القصص]

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .. (٧٥)﴾ [القصص] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلّغكم الرسل .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [النساء]

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ فى البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥)﴾ [القصص] أى : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط فى أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشهداء عليهم ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ .. (٧٥)﴾ [القصص]

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها فى الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذى سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغى عليه أنْ ينصرفَ عنه ، إنْ كان الناصح له صادقاً ، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما
إن صَحَّ قولكُمَا فلسْتُ بَخاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلى فالخسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقيةً فى هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : غاب ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ [القصص] من ادّعاء الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمى صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقى الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمى حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور]

يعنى : قبل عذاب الآخرة .

فالذى يقع للكفار فى الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدى ، وأنْ يقف فى وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا - عز وجل - صورة لهذا العذاب الدنيوى للمفسدين فى الأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ (١) فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ (٢) بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه فى الآخرة ، إنما يجعله مثلاً وعبرة واضحة فى الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبى ﷺ اضطهده كفار قريش ، ووقفوا فى وجه دعوته ، وآذَوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فيتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتِلوا . قال

(١) قال ابن عباس : كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . وزعم ابن إسحاق أن قارون كان عم موسى بن عمران . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٩٨] .

(٢) ناء الرجل بالحمْل : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة . أى : تثقل عليهم وتجهدهم وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

عمر[1] : نعم صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

لذلك يقولون : لا يموت ظالم فى الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ويرى فيه المظلوم يوماً يشفى غليله ، ولما مات ظلوم فى الشام ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار دار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وعَدْل الله - عز وجل - يقتضى هذه المحاسبة .

والحق - تبارك وتعالى - يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون فى أَخْذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه فى الأرض ، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِى بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذى ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامرى الذى خانه فى قومه فى غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

ومُنى من قومه بقارون ، ومعنى : من قومه ، إما لأنه كان من رحمه من بنى إسرائيل ، أو من قومه يعنى : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب و موسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام فى العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه ﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ** (٣٦) ﴾ [طه] وليست هذه أول مرة بل ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ** (٣٧) ﴾ [طه] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين فى الرسالة ، وخاطبهما معاً ﴿ **اذْهَبَا** .. (٤٣) ﴾ [طه] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب فى القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** (٨٨) ﴾ [يونس]

فالذى دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : ﴿ **قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** .. (٨٩) ﴾ [يونس] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعى ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه ﴿ **اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى** .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف] وفى غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب

موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص فى رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذى يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِى (القربان) أى : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى - عليه السلام - طلب من قارون زكاة ماله ، دينار فى كل ألف دينار ، ودرهم فى كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى - عليه السلام[١] .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طَستْاً مليئاً بالذهب ، على أن تدَّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغىُّ وقالت : هو راودنى عن نفسى ، فقال لها : والذى فلق البحر لَتقُولِنّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون فى البَغْى والطغيان حتى أخذه الله ، وقال فى

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى عليه السلام قال لقارون : إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل ، فما ترى ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٣٦] .

حقه هذه الآيات : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧٦﴾﴾ [القصص]

والبغى : تجاوز الحدّ فى الظلم ، خاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قوة بين قومه ، والبغى إما بالاستيلاء على حقوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثية هذا البغى : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .. ﴿٧٦﴾﴾ [القصص]

كلمة (مفاتح) كما فى قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمعها مفاتيح ، أما مفاتح ، فمفردها (مَفْتح)[1] وهى آلة الفتح كالمفتاح ، وهى على وزن (مبرد) فالمعنى : أن مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نميز الخفيف من الثقيلَ بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حمله للإحساس بوزنه.

وقلنا : إن هذه الحاسة هى حاسة العَضَل ، فالحمْل الثقيل يُجهد العضلة ، فتشعر بالثقل ، على خلاف لو حملتَ شيئاً خفيفاً لا تكاد تشعر بوزنه لخفّته ، ولو حاولتَ أنْ تجمع أوزاناً فى حيز ضيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْبة : هم القوم الذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادىء بدون

---

(١) المفتح : الخزانة . قال الأزهرى : كل خزانة كانت لصنف من الأشياء ، فهى مَفْتح ، والمفتح : الكنز . قيل : هى الكنوز والخزائن ، قال الزجاج : روى أن مفاتحه خزائنه . قال الأزهرى : والأشبه فى التفسير أن مفاتحه خزائن ماله ، والله أعلم بما أراد . [لسان العرب ـ مادة : فتح] .

هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (٨)﴾ [يوسف]

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض فى مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى[1] ، فطبيعى أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلى العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. (٤)﴾ [يوسف] وهم إخوته ومنهم بنيامين ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٤)﴾ [يوسف] أى : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذى يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام على ـ رضى الله عنه ـ مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجتُ امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام على : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾[الأحقاف] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة]

يعنى : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هى أقل مدة للحمل . وهكذا

---

(١) تزوج يعقوب أولاً ليئة بنت لابان ، ثم تزوج أختها الصغرى راحيل ، جمع بينهما ، لأنه كان مباحاً فى شريعتهم وقد ولدت له ليئة ٦ بنين (رأوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يسَّاكر ، زبولون) وبنتاً واحدة (دينة) . وولدت له راحيل ولدين : يوسف وبنيامين . وولدت له سريته « بلهة » ولدين : دان ، ونفتالى . وولدت له سريته « زلفة » ولدين : جاد ، وأشير . ذلك ما ذكرته التوراة فى [سفر التكوين : الأصحاح ٣٥ : ٢٣ - ٢٦] .

تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضها بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها فى ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] والنهى هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك ؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغى أن يكون بالشيء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا فى النافع .

فحينما يقولون له ﴿لا تَفْرَحْ .. (٧٦)﴾ [القصص] أى : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشيء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذى يتناول الدواء المر الذى يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فسماه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشيء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعنى أن مبدءك الذى آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

أى : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن رَاقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَابْتَغِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التى أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »[١] .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[٢] .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام على - رضى الله عنه - جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم فى هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا - عز وجل - يوصينا بأن نبتغى الآخرة ، فهذا لا يعنى أن نترك الدنيا : ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس فى الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغى علىَّ أنْ أنساها فذكَّرنى الله بها .

ولأهل المعرفة فى هذه المسألة مَلْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ فى نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] يعنى : خُذْ منها القَدْر الذى يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هى أهم من أن تُنْسى - لأنها الوسيلة إلى الآخرة - وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء فى الأثر « تخلقوا بأخلاق الله ».

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٠١/٧) : « قوله تعالى : ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملاً صالحاً فى دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة .

- وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب - وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة - حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى - حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره - فمَنْ إذن يقرضنى لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ .. (١١)﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرِى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة - رضوان الله عليها - فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به » ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

وقال فى موضع آخر : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وفى الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »(١) .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة ـ هذا فى نظرهم ـ لأنهم لا يملكون الملكة العربية فى استقبال البيان القرآنى . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف ـ ظاهراً ـ فى قوله تعالى : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] وقول النبى ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذى تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله ،

---

(١) عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسرى بى مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/٣٣٣) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج ، وفى المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شىء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنويةِ ـ أَوْلَى من قِوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبنى حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهى ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطراً أَشراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسى نصيبه من الدنيا فلَم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق فى الخير ، فقالوا له : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] يعنى : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

---

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان فى النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب ـ مادتا : أشر ـ بطر] .

ثم يقـول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التى توجَّه بها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التى طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمور ؛ لأن الذى أعطانى المال علم أننى أهْلٌ له ، وأننى أستحقه ؛ لذلك ائتمننى عليه ، ولسْتُ فى حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بمجهودى ومزاولة الأعمال التى تُغل علىَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت فى قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فكيف فاتتْه هذه المسألة مع عِلْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أى : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد

أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جَمْعًا .. (٧٨) ﴾ [القصص] يجوز أن تكون مصدراً يعنى : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أى : له عُصْبَة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب فى أىِّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجرى معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكى عنه القرآن :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج فى زينته وفى موكب عظيم ، وفى أبهة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

وللعلماء كلام كثير[1] فى هذه الزينة التى خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس .. إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] وقد خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٣١)﴾ [طه]

والمعنى : لا تنظر إلى ما فى يد غيرك ، واحترم قدر الله فى خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحتَ بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه . وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما ذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

---

(١) قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر . [أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم] ـ قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . [أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم] . أورد السيوطى هذه الآثار وغيرها فى [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٤١] .

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٣٢﴾ [النساء]

لأن لكل منكم مهمة ودوراً فى الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التى يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوى مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عنى فى خصلة ، وأزيد عنك فى أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم ... إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ فى عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، فى حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً فى شىء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشىء بسيط : حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى - لأنها مرنة سهلة الحركة - تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التى كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق فى شىء أو أحسن فى صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به فى يوم من الأيام .

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص] يعنى: كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأىٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك ردُّوا عليهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) ﴾

فما كان الحق - تبارك وتعالى - ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس فى قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلى الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذى جَعَلَ الحقيقةَ عَلْقَماً   لم يخْل من أهْل الحقيقة جيلا

وما دام أن الله تعالى قال فى الجماعة الأولى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. (٧٩) ﴾ [القصص] فهم لا يرونَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال فى الأخرى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٨٠) ﴾ [القصص] فهذا يعنى : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم

علم ينفعهم ؛ لذلك وقعوا فى هذا المأزق الذى نجا منه أهل العلم ، حينما أجروْا مقارنة بين الطمع فى الدنيا والطمع فى الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿ وَيْلَكُمْ .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحى ، وتمنِّى ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم ، وباعتراضكم على أقدار الله فى خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم فى موضع آخر : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

يعنى : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضَوْها ؟

ومعنى : ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص] أى : يُلقَّى الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها

عن الدنيا ، أى : يُلقَّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفَّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت]

والصبر : احتمال ما يؤذى فى الظاهر ، لكنه يُنعِّم فى الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة] فهناك دَواعٍ شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفَّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال »[1] لا أرحنا منها تلك المقالة التى يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً ﷺ : « وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة »[2] وخصَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعِلت قرة عينى فى الصلاة » .

الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فهى ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة فى العام ، أو مرة واحدة فى العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثانى : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه فى حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر[١] :

إذَا رُمْتَ أنْ تَسْتقرضَ المالَ مُنفقاً ... عَلَى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلِ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فإنْ فعلتْ كنتَ الغنىَّ وإنْ ... أبتْ فكل مَنُوعٍ بعدها واسعِ العُذْرِ

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأولَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ لم تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية بحكمة مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول فى الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »[٢] .

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

(٢) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى الحلية (٢٣٧/٤) وابن الجوزى بإسناده فى « العلل المتناهية » (٥١٩/٢) وضعَّفه . وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥٧/١)

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذى يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شىء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ منَ الله للفتَى ... فَأوَّلُ مَا يَجْنى عليْه اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذتَ بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدى عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حكماً فى كل منهما ، ففى النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ولده :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣) ﴾ [الشورى] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغى أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجنى إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر فى هذه الحالة أشدّ ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ولم يقل كما فى الأولى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعنى أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه فى نفسك ، فإنِ ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرِج الغيظ والغلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإنِ ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهى قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شىء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقى فى طاعة ربك ، فنِعْم الرجل أنت ، ويكفيك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ويكفيك أن المسىء بإساءته إليك جعل الله فى جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدى ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظلمَه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذى يستحقه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول (يا أرض انشقى وابلعينى) ، والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ من فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ من دُون اللَّه .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِين ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] أى : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبَة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلَّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسفت به الأرض ؟!

وهنا ينبغى أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتِنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿ ويكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص]

كلمة (وَىْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهى تنديد وتَخْطِيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَىْ) للتعجب . فقولهم (وى) ندماً على ما كان منهم من تمنى النعمة التى تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن الله تعالى فى رزقه حكمة وقدراً .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص] أى : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليلَ كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله بسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر]

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ .. ١٧ ﴾ [الفجر] يعنى : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطى بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ ﴾ [الفجر]

إذن : فأىُّ كرامة فى مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح فى يد الذى لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا .. ٨٢ ﴾ [القصص] لأنهم بالأمس تمنَّوْا مكانه ، أما الآن فيعترفون بأن الله مَنَّ عليهم حين نجاهم من هذا المصير ، ثم يقولون ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ٨٢ ﴾ [القصص] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل فى هذه المسألة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بنى جنسه ، ولا على بيئته إلا بشىء ذاتى فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشيء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشيء ذاتي فيك ، وليس فيك شيء ذاتي ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم أمسك نفسك في هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا ؟ لأنه لا ذاتية لك في العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو ؛ لأنك بعلوِّك تُحْفظُ الآخرين ؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسانَ لا يعلو في بيئة ولا في مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضْل الله في خَلْقه .

ولو تأملتَ لوجدتَ في كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوي ، وبالتالي لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالي إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذي يتعالى لا يتعالى إلا في غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذي يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحي أن يتكبر على خَلْقه .

والنبي ﷺ يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين ؟ وكيف نتواضع لهم ؟

فلما دخل عليه الصحابى الجليل عدى بن حاتم[1] قام عن كرامة مجلسه له ، يعنى : إنْ كانَ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة فى المجلس ؛ لذلك قال عدى بن حاتم لرسول الله ﷺ : أشهد أنك لا تريد علُواً فى الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً فى مساجدنا ، وهى بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلى عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلّى جانباً ، ويصلى كما يصلى بقية الناس ، وأظن أن الذى يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغى علواً فى الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سوىّ الحركة فى أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيش واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] أى : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة فى النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) هو : ابن حاتم الطائى المشهور بالكرم . أسلم عدى فى سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه عند ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول ﷺ ، شهد فتوح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على ومات بعد الستين هجرية [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٥٤٦٧)] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير »[1] فهي بمعنى التفضيل ، أي : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أي : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنةَ بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فقوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى ، ومعنى ﴿ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها فى الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً فى الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك فى الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء فى نصحهم : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء فى مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهى الشىء الذى يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشىء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشىء ولا يستطيبه ، ويأتى له بالنفع .

فمن إذن الذى يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين فى هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذى خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذى يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون فى تعريف الحسنة : هى ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، فى حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى فى صفة الطعام : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ④﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مرىء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ⑧④﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أى : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعى لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. ⑧④﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التى تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خلْقه .

لذلك قال ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑧④﴾ [القصص] أى : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى سورة (عم) : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ③① حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ③② وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا ③③ وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] ③④ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ③⑤ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ③⑥﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أى فتيات ناضجات متماثلات فى السن . وكعب الثدى : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أى : ذات ثدى بارز . [القاموس القويم ٢ / ١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ③④﴾ [النبأ] أى : هى الامتلاء الدائم ، وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١ / ٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا ـ عز وجل ـ يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١)﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة

ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذى يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله فى الإيمان ، فهو مقهور له تعالى فى مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، ويُعذِّب مَنْ يُعذب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله فى قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً فى كل شىء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله فى الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع فى الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وسُمِّى إنزال القرآن فَرْضاً لما فى القرآن من تكاليف ، وهى عادةً ما تكون شاقة على النفس ، ألاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهى أم العبادات : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبى ﷺ يقول

لبلال : « أرحنا بـها يا بلال »[١] ويقـول : « وجُعلَتْ قـرة عـينى فى الصلاة »[٢] ؛ لأنه ﷺ أحـبهـا وعشـقهـا ، حتى صـارت قُرَّة عـينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شـاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلابة إيمـان وجلَد يقين ، بحيث تثق فى أن العـمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة فى الآخرة .

ويقول تـعالى عن القـتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إنِ استحضرتَ الجزاء ، وعرفتَ أنه : إمـا النصر ، وإما الشـهـادة ، فإنه يحلو لك حتى تعـشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابى فى بدر بعـد أن سمع ما للشـهيد من الأجر وكان فى فـمه تمـرة يمضـغهـا فقـال : « أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل » ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال[٣] .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات فى نفس المؤمن ؛ ليقبل على العـمل بحب وشهـوة . ومن هنا يقول بعض العـارفين الـذين عشـقوا الخيـر حتى أصـبح شـهوةَ نفْس عـندهم : أخشى ألاَّ يُثيـبنى الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقـول : لأننى أصبحتُ أشتـهيها ، أى : كمـا يشتـهى أهل المعصية المعصية .

---

(١) أخـرجـه أحـمـد فى مـسنده (٥/٣٦٤) ، أبو داود فى سنـنه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخـرجـه أحـمـد فى مـسنده (٣/١٢٨) ، والنسـائى فى سننه (٧/٦١) ، والحـاكم فى مسـتدركه (٢/١٦٠) من حـديث أنس رضى الله عنه . قال الحـاكم : صحـيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

(٣) أخرجه البخارى فـى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وحين يصل الإيمان بصاحبه إلى درجة أنه يعشق الطاعة ، فقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

وكان النبى ﷺ يقوم الليل حتى تورمَتْ قدماه ، فلما سألتْه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[(١)] ؟

ومعنى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] يعنى : يجازيك أفضل الجزاء ، ونزلتْ هذه الآية لما اضطهد أهلُ مكة رسولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهاب إلى الطائف ليبحث فيها عن نصير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيها ، وعاد منكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل فى جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدى .

وتأمل حين يكون رسول الله بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره ، أو يُدخله فى جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفى هذه الفترة لاقوا المشاق فى سبيل الدعوة ، فحاصرهم الكفار فى شِعْب أبى طالب ، وفرضوا عليهم المقاطعة التامة حتى عزلوهم عن الناس ، ومنعوا عنهم الطعام والشراب ، والبيع والشراء ، حتى الزواج ، وحتى اضطروا إلى أكل المخلَّفات وأوراق الشجر .

لذلك أمرهم الله بالهجرة ، والهجرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار إيمان ، إلى دار أمن كالهجرة إلى الحبشة حيث قال لهم رسول الله ﷺ مُبيِّناً حيثية الهجرة إليها : « إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٣٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . وعند البخارى زيادة : « فلما كثر لحمه صلى جالساً ، فإذا أراد أن يركع قام ، فقرأ ثم ركع » .

أحد »[1] يعنى : النجاشى ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش فى إثرهم مَنْ يكلم النجاشى فى طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتى إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمى فى أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش فى طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة « لا يظلم عنده أحد » فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله فى أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت رضى الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذى تنصَّر هناك ، وبقيتْ هى على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

وفى هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً معه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد فى تركه ؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشى صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هى هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٢١) : « قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار فى المدينة أروع مَثَل فى التضحية التى ليس لها مثيل فى تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطينى سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار فى هذه المسألة نظرة أخرى حيث أشركوا إخوانهم المهاجرين فى كل شىء حتى فى زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة للنساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتى ، فأيتهنّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً فى تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أُمِر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية فى حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادى فى أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُيتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقنى خلف هذا الوادى .

أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفى عليه الحكمة منها ، فرسول الله ﷺ كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوى فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحى أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدى ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول « شاهت الوجوه »[1] .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به ﷺ .

والمتأمل فى حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعى كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا فى شخص رسول الله ﷺ ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة وهى بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىَّ ، فأسكنِّى أحب البلاد إليك »[2] .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص]

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/٣٦٨) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقال : هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبى سعيد المقبرى ، قال الذهبى : « لكنه موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة ، وسعد بن سعيد المقبرى ليس بثقة » .

فالذى فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها . هو الذى سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردِّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه فى قوله تعالى لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله فى ردِّ موسى يصدق فى ردِّ محمد .

ومعنى ﴿ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذى تعود إليه بعد أنْ تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذى تحنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو : نردك إلى (معاد) أى : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً ﷺ الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذى يؤمن به (صبأ فلان) يعنى : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذى يؤمن فى نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أمّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] أى : جاء بالهدى من عند الله

وهو النبى ﷺ : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ [القصص]

ثم يعطى الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفى له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾

يعنى : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ فى بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذى أعطاك الرسالة ولم تكُنْ فى بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صدْق ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] وفى موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] فالذى أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقَى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [القصص] أى : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة[1] ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريهم فى باطلهم ، لذلك كان النبى ﷺ لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .

وسبق أن ذكرنا فى تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] قصة اليهودى زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده درْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده فى بيت اليهودى ، وكان السارق قد وضعه فى كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودى بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودى على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة فى رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً ؛ وعندها نزل[2] الوحى على رسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

---

(١) عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكُف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتينى من ربى ، فجاء الوحى من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٠٣) ، وقال : « هذا قول جماعة من المفسرين » .

بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] أى : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿**بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)**﴾ [النساء] أى : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿**وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦)**﴾ [النساء] أى : مما خطر ببالك فى هذه المسألة .

وفى بعض الآيات نجد فى ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)**﴾ [الحاقة]

وكل ما يكون فى القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله ﷺ ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطى للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشىء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كان فى القُرآن مِنْ نِذَارةٍ إلى النبىِّ صَاحِبِ البشَارةِ
فكُنْ لَبيباً وافْهَم الإشَارةَ إيَّاك أعنى واسْمعِى يَا جَارة

يعنى : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى :لا يصرفنك ولا يمنعنَّك المشركون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] هذا أيضاً داخل فى (إياك أعنى واسمعى يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] كسابقتها ؛ لأن رسول الله ﷺ ليس مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] أى : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] الوجه فى عُرْفنا ما به المواجهة فى الإنسان ، وكل شىء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه فى إطار قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحـانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا فى كل الصـفات التى يشـترك فـيهـا الحق سـبحـانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتى ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ .. (٨٨) ﴾ [القصص] كلمة شىء يقـولون : إنها جنس الأجناس يعنى : أى موجود طرأ عليـه الوجود يسمى (شىء) مهما كان تافهاً ضـئيلاً . وقد تكلم العلماء فى : أيطلق على الله تعالى أنه شـىء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر فى أصل الكلمـة (شىء) من شاء شيئـاً ، فالشىء شاءه غـيره ، فأوجده ؛ لذلك لا يقـال لله تعالى شـىء ؛ لأنه سبـحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفي آية أخرى يقـول تعالى فى عمومـية الشـىء : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : كل ما يُقال له شـىء موجود سبق وجـوده عدم ، إلا يسـبح بحمد الله ، البـعض قال : هو تسـبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبـيح مقالة حقيقية ، لكن قـوله سبحانه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يدل على أنه تسبيح حقيقى ، فكل شـىء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعـرف تسبيحها ، لكن كيف نـطمع فى معرفة لغات الحـجر والشـجر ، ونحن لا نفـهم لغات بعضنا ، فـإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليـزية ، أتعرف ماذا يقول المتحـدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون فى معجزاته ﷺ : سبَّح الحصى فى يده ، والصواب أن نقول : سـمع رسول الله تسبـيح الحصى فى يده ، وإلاَّ فـالحصى

يُسبِّح فى يد رسـول الله ، ويُسبِّح فى يد أبى جـهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجـذع لرسول الله ﷺ . ثم ألم يقل الحق سـبحـانه : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨)﴾ [النحل]

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَـا (٥)﴾ [الزلزلة] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليـمانَ عليه السلام ، وفهم منه سليمانُ ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التى يفهمها أفراده عن بعض ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾[النور] وإنْ شاء الله أطلع بعض خلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى ﴿هَالِكٌ.. (٨٨)﴾ [القصص] البعض يظن أن الهـلاكَ خاصٌّ بما فـيه روح كالإنسـان والحيـوان ، لكن لو وقفنا عند قـوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال]

إذن : فـالهلاك يقـابله الحـيـاة ، فكل شـىء يهلك كـانت له حيـاة تناسـبـه ، وإنْ كنا لا نفـهم إلا حـياتـنا نحن ، والتى تذهب بخـروج الروح .

ومعنى : ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص] أى : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شـيئاً ، وللوجه هنا معنى آخـر ، كما نقـول : فـعلتُ ذلك ابتـغـاءَ وجـه الله يعنـى : فـعلت والله فى بالى ، فالمعنى : كل شـىء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره فى الدنيا وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص] أى : له الحكم فى الآخرة يوم يقول ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] لكن

لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً فى الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه فى النمرود : ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وقال سبحانه : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيا دنيا الأسباب ، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا الله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه فى الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التى تجرى عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أنْ تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص] أى : للحساب فى الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لابد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

والمتتبع لهذا الفعل فى القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذى تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف فى النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله فى الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه فى الآخرة ، ويأتى مبنياً للمعلوم (ترجعُون) وهو للمؤمن الذى يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .




سورة العنكبوت



سورة العنكبوت[1]



﴿ الٓمٓ ١ ﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان فى فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة فى سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال .

(١) سورة العنكبوت هى السورة رقم ٢٩ فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٦٩ آية ، اختُلف فى كونها مكية أم مدنية ، قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة فى أحد قوليهما : مدنية كلها ، وفى القول الآخر لهما وهو قول يحى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب : نزلت بين مكة والمدينة . [تفسير القرطبى ٥٢١١/٧] . نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وهى السورة رقم ٨٤ فى ترتيب نزول سور القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌّ فى كل آياته وسوره على الوَصْلِ ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) ﴾ [الرحمن]

فلم يقل ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) ﴾ [الرحمن] ويقف ، إنما وصل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) ﴾ [الرحمن] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس فى القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنيٌّ على الوَصْلِ فى السور ، فحين تنتهى سورة لا تنتهى على سكون ، فلم يَقُلْ - سبحانه وتعالى - وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة فى آيات القرآن وسُوره إلا فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، فهى مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

---

(١) نضخت البئر : ارتفع ماؤها وجاش وفار . أى : يخرج ماؤهما غزيراً . ونضاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسَج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقَّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ؛ لأن الله تعالى هو الذى يتكلم . فمعنى (الم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (الم) تحمل معنى من المعانى ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُمىُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير فى المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله ﷺ كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .. إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقّى فى تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح] فينطق الأولى

على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية، فلو قرأنا مثلاً فى الشعر الجاهلى نجد عمرو بن كلثوم(١) يقول :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبِحينَا ... ولاَ تُبقِى خمور الأندرينا

نسأل : ماذا أفادت (أَلاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربى ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شىء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادى أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا ....) كأنك تقول له : تنبه لأننى سأكلمك .

والتنبيه جاء فى اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته فى أى وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عنده استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأتَه بالمراد ، فربما فاته منه شىء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك فى (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتى كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهى - إذن - معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى بلاد ربيعة فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ومات فى الجزيرة الفراتية نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] ، والبيت من معلقته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾[1]

الفعل (حسِب) بالكسر فى الماضى ، وبالفتح فى المضارع (يحسَب) يعنى : ظن . أما : (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أى : عَدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ .. (٢) ﴾ [العنكبوت] أى : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهى تفيد نفى هذا الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هى التى منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقالوها ، إنما هى منهج حياة له متطلبات . إنها تعنى : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس فى الآية قوماً من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٢١٢/٧] وانظر أيضاً [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥] .

هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا .. ② ﴾ [العنكبوت] فالإيمان ليس قولاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صدقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿ وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② ﴾ [العنكبوت] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى فى آية أخرى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. ⑪ ﴾ [الحج]

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكونى ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصدْق الرسول الذى جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر فى حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فى حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد من هذه الخوارق - التى يقف أمامها العقل - أنْ يُميِّز

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعى أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** .. ① ﴾ [الإسراء] فلم يقل محمد : إنى سريت بنفسى إنما أُسْرى بى .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدى الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلّمنا فى قضية ينبغى أن تظل فى أذهانكم جميعاً ، وهى أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذى ينقله الطفل الصغير فى عدة مرات تحمله أنت فى يد واحدة . فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذى يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذى يذهب فى سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهى قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) : « فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة » .

عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد[1] القوى فى إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه فى أكثر من موضع : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ .. (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذى نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التى يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التى نُدب إليها .

ومعنى ﴿ يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] يُخْتبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره فى النار ؛ لنُخرج ما فيه من خَبَث ، ونُصفِّى معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) الصنديد : السيد الشريف . وكل عظيم غالب : صنديد . [لسان العرب ـ مادة : صند] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق فى القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُسلِّى السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجر يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً فى هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٣ ﴾ [العنكبوت] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بنى إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت]

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس فى الوقت سعة للامتحان فيقول منَ واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتنى لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا - عز وجل - يختبر

عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت] علْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ(١) يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾

هنا أيضاً ﴿ حَسِبَ .. ۝٤ ﴾ [العنكبوت] أى : ظن الذين يعملون السيئات ﴿ أَن يَسْبِقُونَا .. ۝٤ ﴾ [العنكبوت] أى : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعنى : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾ [العنكبوت] أى : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهى أنهم لن يُفْلتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وغيرهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٢١٥] .

معنى ﴿ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] يعنى : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذى خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء فى الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً فى جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية[1] :

كُلُّهم يَعْبدُونَ منْ خَوْفِ نَارٍ ... ويروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلاً
أَوْ بِأنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسَبِيلا
لَيْسَ لى بالجِنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أبْتَغِى بحبى بَدِيلا

أى : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك ، وهى أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنى أحبك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها .

ويقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠ ﴾ [الكهف] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذى يُرْجَى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنُّسُك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ [الأعلام للزركلى ٣/ ١٠] .

على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ (٨٨) ﴾ [القصص] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن الميِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتى أو سيأتى ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يُلِم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك أَزِمّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار فى فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتى ، بل ﴿ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..(١) ﴾ [النحل] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يأْتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أى مُحقّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

وفى الآية التى معنا ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشىء حسىٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسىِّ إلى الغيبى غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بنى آدم فى هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت .. إلخ .

وفى كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة فى انقضاء الأجل ، لا فى سنٍّ ولا فى سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَب السُّقْم كأسَ المماتِ وإنْ كانَ سُقْماً شَديد الأَثَر

فَرُبَّ عليلٍ تـراهُ استـفاقَ ورُبَّ سَليمٍ تَرَاهُ احتُضـرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَبَ الممتلِى صحةً وصَحَّ السَّقِيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع فى الوباءات التى تعترى الناس ، فيموت

واحـد ويعـيش آخـر ، فليس فى المـوت رتابة ، والحق ـ سـبحـانه وتعالى ـ حيـنما يقول : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] نجد واقع الحيـاة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ فى عمر ، ولا وحدةَ فى سبب .

والصدق فى الأجل الأول المـشاهد لنا يدعـونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فـالأجل الذى أنهى الحـياة بالاخـتلاف هو الذى يأتى بالحـياة بالاتفاق ، فـبنفخـة واحدة سنقـوم جميـعاً أحـياءً للحـساب ، فـإن اخـتلفنا فى الأولى فـسوف نـتفق فى الآخـرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فـيه ، ومستقبل لا نعـرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطى لنا فى الوجود المشاهد دليلَ الصدق فى غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نـعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال مـا أخبرنا الله به من أن أَصْلَ الإنسان تراب اخـتلط بالماء حـتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار .. إلخ .

ثم جـعل نسـل الإنسـان من نطفـة تتـحـول إلى عـلقـة ، ثم إلى مـضـغة ، ثم إلـى عظام ، ثم تُـكْسى العظام لحـمـاً . وإنْ كـان العلم الحديث أرانا النـطفة والعلقة والمـضـغة ، وأرانا كـيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إنى أعلمه ؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلـين فى قوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ

أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ [الكهف]

فـلا علمَ لهم بخَلْق الإنسـان ، ولا علمَ لهم بـخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسـمع لهم ، وخُذْ معلوماتـك من كتاب ربك الذى خلق سبـحانه ، ويقوم وجـود المضلين الذين يـقولون : إن الأرض قطعة مـن الشمس انفصلتْ عـنها ، أو أن الإنسان أصله قـرد - يقوم وجـودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّى القـرد إلى إنسان ؟ ولماذا ترقّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقى القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رســول الله ، فكيف بمَـنْ لا يؤمن ولا يُصــدِّق ؟ لذلك يُؤنـس الحق سبحانه هذه العـقول المستشرفة لـمعرفة حقائق الأشيـاء يُؤنسها بما تشـاهد : فـإنْ كنتَ لا تُصدِّق مـســألة الخَلْق فـأنت بلا شكٍّ تشـاهد مسألة الموت وتعايـنه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشىء يأتى عكْس بنائه .

والخـالق - عـز وجل - أخـبـر أن الروح هى آخـر شىء فى بناء الإنسان ، لذلك هى أول شىء يُنقَض فيه عند الـموت ، إذن : مشـهدك فى كيف تموت ، يؤكد لك صدْق الله فى كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمـر لا بُدَّ منه ليُثـاب المطيع ويُعَاقـب العاصى ، ألاَ ترى إلى النظم الاجتـماعيـة حتى عند غير المـؤمنين تأخذ بهذا المـبدأ

لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى فى خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلِت من العقاب فى الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت] ألاَ ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموعَ أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف] فكل فعل ناشىء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح فى الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد فى إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان فى كذا يعنى : عمل أقصى ما فى وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد فى أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال فى النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشىء الذى تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشىء الذى يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتى منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة فى البحث العلمى والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس فى تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل فى الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل فى حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد فى بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

وبهذا المنهج الغذائى الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عنى وجهك - يعنى : أنا لا أحبك - فيقول : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكى على الحب

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمى نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والحاكم فى مستدركه (٣٣١/٤) .

النساء . يعنى : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتى هى أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربةً ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك فى هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهى المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربى أراد بى خيراً ، فبها تُكفِّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلت عن ربى أو غرَّتنى النعمة ، فابتلانى الله ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس فى تلقِّى المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل فى لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل فى افعل . وحين تستقصى (افعل ولا تفعل) فى منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك فى الحياة ، والباقى مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أي حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذي يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه - يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما في الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت في مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غني عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذي تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذي تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] أي : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية في آيات عديدة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. ۝ ﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ۝ ﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذي يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتى قدرة ، ومن علمى علماً ، ومن بَسْطى بَسْطاً ، ومن جبروتى جبروتاً ، وأعطيه من صفاتى .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون فى وهب الصفات ومجال الصفات فى الفعل ليس فى أنْ أفعل لك ، إنما فى أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أى : يُعدِّى إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق - سبحانه وتعالى - فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطِ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك فى كل الأَوقات ، أفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّى أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّى بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطى سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التى تفعل بها لمجرد أن تفكر فى الفعل ، بالله ماذا تفعل لكى تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلى كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك ـ عز وجل ـ أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شىء غير الإرادة فى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلَبَها منك لقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق] فتأتى لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخارى أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إننا فى شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة ـ فترة الابتلاء ـ لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللهَ والذئبَ على غنمه »[1] .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »[2] .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٣٩٥/٦) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىَّ فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يذكر لنا - سبحانه وتعالى - النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

منه أهل الصحراء ، فقد نرمى فيه القاذورات التى تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتى مَنْ يبنى حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع فى حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً ـ ما دام يؤدى خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هى قيمة العامل الذى يُحسنها وينفع الناس بها ، يعنى : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امرىء مَا يُحسنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُنَاس غير مسلمين : كان نقيب العمال فى فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التى كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفى إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت فى يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكننى كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** .. (٧) ﴾ [العنكبوت] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم

على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمى لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق - عز وجل - يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقعهم فى المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه ﴿ **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ..** (٧) ﴾ [العنكبوت]

بل وأكثر من ذلك ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** (٧٠) ﴾ [الفرقان] فأىُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئةَ حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ..** (١١٤) ﴾ [هود] وفى الحديث الشريف : « .. وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها »[1] .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا**

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل ، وتمامه : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

يَعْمَلُونَ (٧)﴾ [العنكبوت] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطى الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغنى لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع فى هبتك ، كذلك ربُّك - عز وجل - لا يرجع فى هبته .

وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر »[1] .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردِّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدَّق ، لكن فى القرض مثلاً لو تصدَّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى فى تكوين المجتمع ، وهى دائرة الأسرة المكوَّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ،

(١) عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢/ ٣٤) .

فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة فى حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر فى حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين فى حالة برِّهم بهم ، وفى الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله فى مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة - لا لإنجاب طفل - إنما لإنجاب أب لك يعولك فى طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبنى الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت] ، وفى موضع آخر قال سبحانه فى نفس الوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) سبب نزول الآية : قال المفسرون : نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة : يا سعد بلغنى أنك صبوت . فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحبّ ولدها إليها ، فأبى سعد فصبرت هى ثلاثة أيام لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل بظلٍّ حتى خشى عليها ، فأتى سعد النبى ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله هذه الآية والتى فى لقمان والأحقاف . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥].

وفَرْق بين المعنيين : ﴿حُسْنًا .. ⑧﴾ [العنكبوت] أى : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما فى ﴿إِحْسَانًا .. ⑮﴾ [الأحقاف] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته فى الآية التى تذكر اللدد الإيمانى ، حيث قال : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ⑧﴾ [العنكبوت] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفى فى برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ⑮﴾ [لقمان]

والحق سبحانه حين يُوصى بالوالدين ، وهما السبب المباشر فى الوجود إنما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلى وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقى ، أما الوالدان فهما وجود سببى .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى فى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ㊱﴾ [النساء] لأنهما سبب الوجود الجزئى ، والله تعالى سبب الوجود الكلى .

وهذا أيضاً من المواضع التى وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفى موضع آخر : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهذا التعارض لا يوجد إلا فى عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففى موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان]

فكُفْر الوالدين لا يعنى السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت فى الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا فى قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] وهذه تكون فى الآخرة .

قالوا : ذكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطفل ليس لديه الوعى الذى يعرف به فَضْل أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذى يقضى له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

فقدّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول فى الصالحين مسألة كبيرة ، وهى كذلك ، ويكفى أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ۝١٠﴾ [العنكبوت] قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا ، فلحقهم أبو سفيان ، فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا . [الدر المنثور ٦/٤٥٣] ، القرطبى فى [تفسيره ٧/٥٢١٨] : « وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضُرِب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه » .

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

ويقول تعالى فى صفات المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون] فالله تعالى لا يُكذِّبهم فى أن محمداً رسول الله ، إنما فى شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطىء القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أى : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوَّاه بعذاب الله الذى يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء فى المساواة بين العذابين ؛ لأن عذابَ الناس سينتهى ولو بموت المؤذى المعذِّب ، أما عذاب الله فى الآخرة فباق لا ينتهى ، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطىء .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت فى عياش بن أبى ربيعة[1] ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) قال ابن حجر فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٦١١٨) : « يلقب ذا الرمحين ، ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة ، كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة فحبسوه ، وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات عام ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر ، وقيل : استشهد باليمامة . وقيل : باليرموك » .

السبب ، وكان عياش بن أبى ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التى هى أسماء[١] .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلنى سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه[٢] ، وظلت على هذه الحال التى وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكنه رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه فى الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن

---

(١) هى : أسماء بنت مخربة . ويقال : بنت عمرو بن مخربة بن جندل ، ذكر البلاذرى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى : قدم هشام بن المغيرة نجران فرأى أسماء بنت مخربة فأعجبته فتزوجها وحملها إلى مكة فولدت له أبا جهل والحارث ، ثم مات ، فتزوجها عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشاً ، فكان أخا أبى جهل والحارث لأمهما . وقال : قال محمد بن سعد : إنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة . ويقال : إنها أسلمت وأدركت خلافة عمر ، وذلك أثبت» (الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٨/ ١٠) .

(٢) أورد الواحدى النيسابورى هذه القصة في (أسباب النزول ص ٩٧) . فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. (٩٢)﴾ [النساء] وفيه أن أبا جهل والحارث بن هشام خرجا يطلبان أخاهما لأمهما عياشاً ، فأتوه وهو فى الأطم (حصن بالمدينة مبنى بالحجارة) ، فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليها ، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شىء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكرا له جزع أمه وأوثقا له ، نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع وجلده كل واحد منهم مائة جلدة » .

استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث[1] عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. (٩٢) ﴾ [النساء]

ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [العنكبوت] أى : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ .. (١٠) ﴾ [العنكبوت] أى : اجعلوا لنا سهماً فى المغنم ﴿ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [العنكبوت] فالله سبحانه يعلم ما يدور فى صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً (٤٧) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا

---

(١) تحقيق هذا الأمر : أن عياشاً لم يقتل الحارث أخاه ، بل قتل الحارث بن يزيد بن أنيسة وكان مع أخويه أبى جهل والحارث عندما أوثقاه وضرباه . قال ابن حجر فى « الإصابة » فى ترجمته (١٥٠٤) : « كان يؤذيهم بمكة وهو كافر ، فلما هاجر الصحابة أسلم الحارث ولم يعلموا بإسلامه وأقبل مهاجراً ، حتى إذا كان بظاهر الحرة لقيه عياش بن أبى ربيعة فظنه على شركه فعلاه بالسيف حتى قتله ، فنزلت هذه الآية » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٩٧) ، وابن كثير فى تفسيره (١/ ٥٣٤) .

وكذا ؛ لأنى أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله مـا كان سيحدث منا شىء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا لَوْن من ألـوان الإيذاء أن يقـول الذيـن كـفـروا للـذين آمنوا ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ما نحن علـيه من دين الآباء والأجداد ، ومـا نحن عليه من عـبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعـبد آلهة لا تـكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعـبدون إلهـاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمـعنى : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبـوت] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليـكم خطايا سنحملهـا عنكم ، وانظر هنا إلى غبـاء الكافر فقـد آمن هو نفسـه أن هذه خطيئـة ، ومع ذلك يتعرَّض لحـملها ، لكن كيف يحملهـا ؟ وكيف يكون هو المسئول عنهـا أمام الله - عز وجل - حـين يحاسـبنى ربى عليـها ويعـاتبنى على اتبـاعى له ؟ وهل للكافـر شفاعة أو قوة يدافع بها عنى فى الآخرة ؟

لذلك يقول تعـالى بعدها : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول التابعون : ﴿ربَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

فالمودة التى كانت بينهم فى الدنيا تحولتْ إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا فى الدنيا على الضلال ، فتفرقوا فى الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] فالمتقى ساعة يرى المتقى فى الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه فى الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثنى عليه ، وربما اعتبره عدوه فى الدنيا . أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن فى قولهم : ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢)﴾ [العنكبوت] ، كما هو بيِّن فى قولهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وكما هو بيِّن فى قولهم : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)﴾ [المنافقون] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى فى المواجهة .

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾

وفى موضع آخر : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] . فالأثقال هى الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم

للغـير[1] ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبـوت]
والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات فى عمـومها ، أراد أنْ يتكلَّم عنها فى خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ[2] إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) ﴾

يقـول العلماء : إن نوحـاً ـ عليه السـلام ـ هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مـثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعـملون به ، فيكونون نموذجاً إيمـانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقـتَدِ بهم ، أما إنِ اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفـرِّق بين النـبى والرسـول ، بأن النبى أُوحِى إليـه بشـرع يعمل به ولم يُؤْمر بتـبليغه ، أما الرسول فقد أُوحـى إليه بشرع وأُمر بتبليغـه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلـك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

---

(١) أخرج ابن أبى شـيبة فى المصـنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضى الله عنه قـال : كان أبو جهل وصنـاديد قريش يتلقون النـاس إذا جاءوا إلى النبى ﷺ يسلمـون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت] [أورده السـيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٥٤] .

(٢) أخرج ابن أبى الدنيـا فى كتاب « ذم الدنيـا » (ص ٨٨ مكتبة القـرآن) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام . فـقال : يا أطول النبيين عمراً ، كيف وجدت الدنـيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فوقف وسط البـاب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر . وأورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٦/ ٤٥٦) .

إذن : فالنبى أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثى عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتى بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة فى الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتى لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) فى مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعنى أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته فى الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به[1] ، لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبنى عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

---

(١) أورد البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٦٤) أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتَّم منه حين ذكرته وما تردد فيه » وعزاه لابن إسحاق .

إذن : ففى كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم مَلَك ؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ۝٩٥﴾ [الإسراء]

ولو فُرِض أننا أرسلناه مَلَكاً أهم يروْن الملائكة ؟ لا يروْنَها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ، ولو أتاهم فى صورة بشر لقالوا نريد ملكاً .

وقوله عز وجل : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. ۝١٤﴾ [العنكبوت] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعان كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً[1] . وفى الأعداد فى القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ۝١٤٢﴾ [الأعراف]

وفى آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ۝٥١﴾ [البقرة]

ففى سورة البقرة إجمال ، وفى آية الأعراف تفصيل . والحكمة فى هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل فى مدة الثلاثين ليلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٢/٧) : فإن قيل : فلم قال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. ۝١٤﴾ [العنكبوت] ولم يقل : تسعمائة وخمسين عاماً ، ففيه جوابان :
أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ ، وأكثر فى العدد .
الثانى : ما رُوى أنه أُعطى من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع فى استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته » .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر أُخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأْت بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب فى عَدِّ البشر ، أما فى حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعنى : منتهى ما فى استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلتَ : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هى لتسلية رسول الله ﷺ ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخناق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك فى الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعنى مدة المشقة التى تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ثم استثنى منها ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعنى أىَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هى التى تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة ، فى حين أن السنة ليس من الضرورى أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهى بذى الحجة ، إنما تبدأ فى أى وقت وتنتهى فى مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أى : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربى ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التى هى اثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً فى السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلمنا أن السنة هى العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعىَ للجاج فى هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذّبوا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت] فالعلة فى أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهى القصة أو اللقطة فى آية واحدة الغرض منها تسلية النبى ﷺ ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ فَأَخَذَهُمُ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] الأَخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أَخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شىء حى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات فى الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه

الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ وبأىِّ كفٍّ فِى المدائنِ تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيُصبح عَسْجَداً[1] والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح ـ عليه السلام ـ الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ بالسفينة التى قال الله عنها فى سورة هود : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١)﴾ [هود]

وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ [هود] فكان نوح ـ عليه السلام ـ على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها فى نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨)﴾ [هود] فكان يردُّ عليهم فى نفسه : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

---

(١) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح - عليه السلام - لكى نجول فى كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفى قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥)﴾ [هود] فيعطيه الله الحكم فى هذه المسألة ، ويُصحِّح له : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبى من أنبيائه ، إنما هى كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشى أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم]

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة فى قوله : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود] بقوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] حتى لا تذهب بنا الظنون فى زوجة نبى الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

أى : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها فى الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشىء ، سواء كان علْماً أو مالاً أو قدرة .. إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] فهى حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] وقد ورد هذا الحق فى المال مرتين فى القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة فى مقام

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٢٣) : « الهاء والألف فى « جعلناها » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ، ثلاثة أقوال » .

الإيمان ، وغير المعلوم هى الصدقة ؛ لأنها لا تخضع لمقدار معين ، بل هى حَسْب أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله فى مقام الإحسان الذى قال الله فيه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

وهذه الزيادة فى العبادات دليل على عشْق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة ؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً ؛ لأنك إنْ فعلتَ صار فى حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقص منه .

إنما اجعله لنشاطك ومقدرتك ؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغى أنْ تُقال ، فكأنك - والعياذ بالله - جربت وُدّك لله فلم تجده - والعياذ بالله - أهلَ وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥)﴾ [العنكبوت] يدلنا على أنها صُنِعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا ملْكاً له عليه السلام .

لكن كيف نفهم ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥)﴾ [العنكبوت] وقد حمل فيها نوح - عليه السلام - من كُلٍّ زوجين اثنين ؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة ؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] أى : أمراً

عجيباً لم يسبق له مثيل فى حياة الناس ، فقد صنعها نوح - عليه السلام - بوحى من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلّمه صناعتها ؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين ، وهذه الآية ﴿ لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] جميعاً .

ثم يذكر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) ﴾

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية - معطوفة على ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا[(١)] ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح ؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم ؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف - أى من التنوين - لأنه اسم أعجمى .

ونلحظ فى هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التى تبدأ بهذه الحروف (صن شمله) وهى على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] يعنى : واذكر إبراهيم

---

(١) سبب نصب كلمة إبراهيم فى الآية له ثلاثة أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٤/٧):
- قال الكسائى : منصوب بـ « أنجينا » يعنى أنه معطوف على الهاء .
- وأجاز الكسائى أن يكون معطوفاً على نوح ، والمعنى : وأرسلنا إبراهيم .
- وقول ثالث : أن يكون منصوباً بمعنى : واذكر إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ فى أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعى الألوهية ، وليس له أمر نؤديه ، أو نهى نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .

لذلك كذب الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .

ثم عطف الأمر ﴿وَاتَّقُوهُ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] على ﴿اعْبُدُوا .. (١٦)﴾ [العنكبوت] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهى ، فهى مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعنى : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .

وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ .. إلخ . وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب . وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)﴾ [العنكبوت] ذلكم : أى ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ فى علمكم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧)﴾ [الروم]

فالعلم الحقيقى هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذى يعطيك الخير الحقيقى طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك فيها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة فى الحياة . أى : العلم المادى التجريبى وآثار هذا العلم فى الدنيا ، أما العلم السامى الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .

واقرأ فى ذلك مثلاً قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه علم النبات والجماد و ﴿ **مِنَ النَّاسِ** .. (٢٨) ﴾ [فاطر] أى : علم الإنسانيات ﴿ **وَالدَّوَابِّ** .. (٢٨) ﴾ [فاطر] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** .. (٢٨) ﴾ [فاطر] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أىَّ حكم شرعى .

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية فى الوجود ، كهذه الاكتشافات التى تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل فى نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ،

---

(١) الجُدَّة من الجبل : القطعة منه . والجدَّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر] أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/ ١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

وتأمل وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائياً دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب فى القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرِج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شىء ، ثم فى لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث ؟ ذلك لأن فى مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التى تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات فى مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتَقط المخاطُ الغبارَ الدقيق الذى لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات فى جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشرى ، أما العلم الذى يخرج عن نطاق الذِّهْن البشرى فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذى جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذى يأخذ بالعلم الدنيوى التجريبى فقط يُحرَم من الخير الباقى ؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة فى البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك فى الآخرة .

إذن : فقـوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْـرٌ لَّكُمْ .. ⟨١٦⟩ ﴾ [العنكبوت] أى : قانون الصيانة الربانى بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) فى (لا تفعل) أو مدلـول (لا تفعل) فى (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القـانون (بالكتالوج) الذى يجعله الصانع لحـماية الصنعة المـادية لتؤدى مـهمـتهـا على أكمـل وجه ، كـذلك منهج الله بالنسبـة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبـحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ⟨٢٠⟩ ﴾[الشورى]

إذن : فالخير الباقى هو الخير فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⟨١٧⟩ ﴾

قوله تـعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ .. ⟨١٧⟩ ﴾ [العنكبـوت] أى : على حَدِّ زعمهم ، وعلـى حَدِّ قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ⟨٣⟩ ﴾ [الزمـر] ، وإلا فـلا عـبادة لهـذه الآلهـة ، حـيث لا أمـر عندهم ولا نهى ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخنَاق قالوا : ﴿ مَـا نَعْـبُـدُهُـمْ إِلاَّ لِيُـقَـرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ⟨٣⟩ ﴾ [الزمـر] فـهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصِب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيرى ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس .. إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضى الله عنه .

وبأىِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأىُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الصافات] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صدْقاً ؟ أم يُوجدون كذباً ؟ إنهم يُوجدون ﴿ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] والإفك تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] أى : القرى التى كفأها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هى القضية الصادقة التى توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإنِ اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجِد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراثَ من الحديد .. إلخ فأوجدتَ معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً لا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خِلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر .. إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] في موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذى نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتى مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول فى المثل (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) إنما أُطعمك وتسمع لغيرى ؟!!

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب فى التخزين للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخر للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانه وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب ، وإنْ حُرمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذى كان يأتيها بشكل دورىٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين فى بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقى لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هى ، بل رزق ولدها فى أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك ؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً فى مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبى ﷺ يقول : « إذا بليتم فاستتروا »[1] ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا فى بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله ؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. (١٧)﴾ [العنكبوت] ثم يقول سبحانه ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾ [العنكبوت] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفى أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع فى نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهى سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل

(١) تمام هذا الحديث : « إذا بُليتم بالمعاصى فاستتروا » أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٨٧/١) (حديث ٢١١) وقال : رواه البيهقى والحاكم عن ابن عمر . والحديث الأَوْلَى بالاستشهاد هنا هو ما أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٤٩/١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن ولم يشْكُنى إلى عواده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » . وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى ، والله تعالى أعلى وأعلم .

تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٧)﴾ [العنكبوت] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نعَم الله التى لا تُعَدُّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التى تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] يعنى : مملوك لشركاء مختلفين ، ووليتهم متفقون ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أى : ملْك لسيد واحد ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فكذلك الموحِّد لله ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢)﴾ [البقرة] فاللص الذى يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولساقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعنى هذا أنْ تُفلتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] أى : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، فى حين أن الكون كله لا اختيارَ له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فالكون كله مسخر يؤدى مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى .

فالمعنى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] فلستم بدعاً فى التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هى المسألة التى ينبغى عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقـول : كيف يقول القرآن فى خطاب قوم إبراهيم ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. (١٨)﴾ [العنكبوت] مع أنه لم يسبـقهم إلا أمة واحدة هى أمة نوح عليـه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هى أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلهـا آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعـاً فى أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مـدة بقاء نوح فى قومه طالت حـتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل ـ كما قالوا ـ مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقـول تعـالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُـولِ إِلاَّ الْبَـلاغُ الْمُـبِـينُ (١٨)﴾ [العنكبوت] فمـهمـته مـجرد الـبلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفـر مَنْ يكفـر ، الرسول لن نعطيـه مكافـأة أو عمـولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفـركم تُقلِّلون من مكافأة النبى ـ خاصـة وقد كانوا كارهين له ـ فالمعنى : علىَّ البلاغ فـحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جـزائى وأجرى من ربى ، فـأنتم لا تكيـدوننى بكفركم ، بل تكيـدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمـد ﷺ يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحـد من أمتـه فكفـر ، حـتى خاطبـه ربه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢)﴾ [البقرة]

وخاطبه بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾[الشعراء]

وحـين نزل عليـه ﷺ : ﴿وَالضُّـحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَـجَىٰ (٢) مَـا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى] انتهز النبى هذه الفـرصة ودعا ربه : إذن

لا أرضى وواحد من أمتى فى النار[1] ؛ ذلك لأنه ﷺ مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين . أى : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التى تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد ﷺ : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم فى تأمل الكون الذى تعيشون فيه ، والذى طرأتُم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوِّمات حياتكم .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. (١٩) ﴾ [العنكبوت] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم . انظر الدر المنثور للسيوطى (٨/٥٤٢).

(٢) العنت : المشقة . أى : أحبوا وتمنوا دوام عنتكم ودوام المشقات عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

تعالى لرسوله ﷺ أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبى بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة فى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا .. ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم ترَ إلى فلان الذى أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذى أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسِن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ فى الاعتراف .

فساعة يأتى بعد الهمزة نَفْى يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله . والنفى بعد الإنكار نفى للنفى ، ونفى النفى إثبات .

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة فى الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]

لكن ، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْن أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه

العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] ؛ لأن هذه الشهادة هى التى ستجعله يقول للشىء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١٩) ﴾ [العنكبوت] كيف ونحن لم نَر الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة فى مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها فى الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيى الأرض بالنبات ، ثم يأتى وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التى تعيد الدورة من جديد . والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها فى الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

انظر مثلاً إلى دورة الماء فى الكون : هل زادتْ كمية الماء التى خلقها الله فى الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة فى عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هى هى منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور في دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حَقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً ﷺ :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير فى الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] أى : نسير فيها ؛ لأن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير فى الأرض فهى تحتك ، وغلافها الجوى فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة فى السير ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك فى بلادك . فقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] أى : نظر اعتبار وتأمل .

أما فى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] فثم تفيد العطف والتراخى ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا فى الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال فى السورة السابقة (القصص) : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] والمراد بذلك الهجرة ، وفى هذه السورة تأتى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت]

والمعنى : إن ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة فى الاعتبار والتأمل فسرْ فى الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعِبَر فى اختلافَ الأجناس والبيئات والثمار والأجواء .. إلخ .

لذلك يقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هى السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضى الخِصْبة التى إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع

الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق - عز وجل - وعُدْنا إلى منهجه الذى وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن]

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام[1] ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى فى عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذى أراده الله فى كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥)﴾ [ق] فيشكُّوا فى الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ فى حين قدَّم المغفرة

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

في آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [العنكبوت] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

وقد صَحَّ في الحديث القدسي : « رحمتي سبقت غضبي »(1) ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾ [العنكبوت] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ،

---

(1) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

ولن تتأبَّوْا عليه ، حين يريدكم للوقوف بين يديه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : لن تعجزونى حين أطلبكم ؛ لأن نفىَ الفعل غير نفى الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لى ثوباً ، فهذا يعنى أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلاتَ من لقاء الله فى الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفى عنهم الوصف من أساسه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢)﴾ [العنكبوت] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شىء .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولى ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الولىّ هو الذى يقرب منك بمودة وحُبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذى ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير ، لكن ذكر ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونيـة التى تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق ـ عز وجل ـ كـالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المـعـجـزات التى تصـاحب الرسل ؛ ليـؤيدهم الله بهـا ويُظهِـر صِدْقهم فى البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقـد كفـر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فـلم يُصدِّقـوا منهـا شـيئـاً ، وما داموا قد كفروا بهـذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله فى الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شـريك له ، وبيَّـن لهم بطلان عـبـادة آلهـتـهـم ، وأنهـا لا تضـر ولا تنفع ، كـان عليـهم أن يجادلوه ، وأن يدافـعـوا عن آلهـتـهم ، وأن يُظهِروا حجتهم فى عبادتهم .

إنما يأتى جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجـرد هروب من المواجهـة ، وإفلاس فى الحجـة ، إنه جواب مَنْ لم يجـد جواباً ، وليس لـديه إلا التهـديد والتلويح بالقـوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو فى صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿اقْتُلُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل فى التراب ، إذن : فهما سواء فى أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى تضىء ، فالكهرباء لا توجد فى اللمبة ، إنما فى شىء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء فى اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لاستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضىء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهى سليمة .

ثم قالوا ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً فى العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمَّا التحريق فلا يعنى بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقط اقتلوه وتنتهى المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿اقْتُلُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] ثم تراءى لهم رأى آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا

يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .

لكن مَن الذى قال ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَن المأمور ؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله ، فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ فمهمة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأْتِ على هذه الصورة ؟

إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدى مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقى فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

لذلك إن لم يكُنْ لك رزق فى حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقد خرق الله نواميس الكون لموسى ـ عليه السلام ـ حينما ضرب البحر ، فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء

إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل فى الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ونذكر فى قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] آية وهنا قال ﴿ لَآيَاتٍ.. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهناك قال ﴿ لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] وهنا قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالاختلاف إذن بين السياقين فى أمرين :

قال فى السفينة ﴿ آيَةً.. (١٥) ﴾ [العنكبوت] لأن العجيب فى أمر السفينة ليس فى صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا فى مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه فى النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفىء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء فى النار .

لكن لم يحدث شىء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه فى

النار وهى مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ۝١٥ ﴾ [العنكبوت] لأن السفينة حينما رسَتْ ونجا ركابها ظلَّتْ السفينة باقية فى مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشَاهد .

أمّا فى مسألة إبراهيم - عليه السلام - فقال ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤ ﴾ [العنكبوت] لأن نجاة إبراهيم - عليه السلام - كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهى آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ ﴾

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التى رأيتموها حين نجانى ربى من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون

بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٥)﴾ [العنكبوت] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وفي آية أخرى ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة]

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٦٧)﴾ [الزخرف] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت]

وقال : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن

لأخيه الذى جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها - على كُرْه منه وضيق - جزاك الله خيراً لقد أنقذتنى .

ولا ينتهى الأمر عند هذه العقوبة التى يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام فى الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولى أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهى هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكى قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفى أن الله تعالى قال عنه : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] .. (١٢٠)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)﴾

أى : أن قوم إبراهيم - عليه السلام - ظلوا على كفرهم ، والذى آمن به لوط - عليه السلام - وكان ابن أخيه ، وكانوا فى العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] حين نتتبع كلمة آمن فى

---

(١) الأمة : الرجل الجامع للخير ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . [لسان العرب - مادة : أمم] .

القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف في المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابي ، فهنا ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما في قوله تعالى عن قريش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذي آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف] ومعنى ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] أي : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى - رحمة الله عليه - وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطي[1] . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضي عليها ؟

---

(١) جاء في : [لسان العرب - مادة : لَوَط] « لاط الرجل لواطاً ولاوط أي : عمل عمل قوم لوط . وقال الليث : لوط كان نبياً بعثه الله إلى قومه فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعَلَ فِعْلَ قومه » .

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلى ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزى ، ولبختنصر قالوا : بختى ، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم دَرْعمى .. إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قوْطى) ونُجنِّب نبى الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته فى تكريمه : (لك فى العلم مبدأ طَحْسَنى) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] جاءت جملة اعتراضية فى قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم فى قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] أى : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شىء إلى شىء آخر ، لكن هَجَرَ تعنى أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبى ﷺ لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعنى أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل فى الهجرة ، وهم طرف ثانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبى :

إذَا ترحَّلْتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة أنْ يسمى نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثى ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذى تركه ، لكن هنا قال فى الفعل : هاجر . وفى الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار إيمان ، لأن رسول الله ﷺ حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد »[1] .

وكأنه ﷺ بُسطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تَبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرةً إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربى هى المقصودة ، وإلا فَلَكَ أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك فى كل مكانٍ هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربى ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة فى الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل ، أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

حقق رغبة فى نفسك ، فأنت - إذن - لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء فى الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١) .

فالمعنى ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] يعنى : ليس الانتقال على رغبتى وحَسْب هواى ، إنما حسب الوجهة التى يُوجِّهنى إليها ربى . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع فى تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه علَّه يرجع فى قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه هى كلمة الحق التى هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أن ربى هو الذى يُوجِّهنى ، وهو سبحانه فى كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى ما وجَّهتكم فى صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب . وأوله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

المعنى ؛ لأنك تتـجه إليها من أى مكان كنت ، ومن أية جـهة فحيـثما توجهتَ فهى قبلتُك .

ثم يقول : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ [العنكبوت] اختـار الخليل إبراهيم ـ عليه السـلام ـ من صفات ربه ﴿الْعَزِيزُ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أى : الذى لا يُغلب وهـو يَغْلب . وهذه الصـفـة تنـاسب مـا كـان من مـحـاولة إحـراقـه ، وكـأنه يقـول للقـوم : أنا ذاهب إلى حـضن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ [العنكبـوت] أى : فى تصـرفـاته ، فـلا بُدَّ أنه سبـحانه سـينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يسـتحـقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التى أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾

وجاء وقـت الجزاء لينال إبراهيم ـ عليـه السلام ـ من ربـه جزاء صبره على الابتـلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبـريل لما جاءه يعـرض عليه المـساعـدة وهو فى طريقـه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيـقول إبراهيم : أما إليك فلا[1] . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق

(١) أخرج ابن جرير عن مـعتمر بن سليمان التـيمى عن بعض أصحابه قال : جـاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق لـيلقى فى النار قـال : يا إبراهيم ، ألك حـاجـة ؟ قال : أمـا إليك فـلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً فى القوم ، بدليل قولهم عنه لما حطّم أصنامهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه وقال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام فى التشهد فى كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم فى دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] وكأنه يقول : يا رب إن قومى يستقلوننى ، فاجعل لى ذكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل - عليه السلام - غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهى الأَمَة وتتميز عليها[2] ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذٍ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب فى هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢ / ١٣٤] . وقال ابن سيده : القانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . وقال ابن منظور : القنوت الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التى ليس معها معصية [لسان العرب - مادة : قنت] .

(٢) ذكرت التوراة هذا : « رأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق . فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدْعى لك نسل . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [سفر التكوين ٢١ : ٩ - ١٣] .

إِسْحَاقَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] ثم ﴿ وَيَعْقُوبَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى قال : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت فى الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٧) ﴾ [العنكبوت] لذلك حين نستقرىء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته[1] .

والذرية المذكورة هنا يُرَاد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهَبان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعى الذى يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - فى هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٢٩) : « فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل والفرقان ، فهو عبارة عن الجمع ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده ﷺ » .

فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين فى الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْكِتَابَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : الكتب التى نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهى : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه فى السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً .. إلخ وهذا أجره فى الدنيا فقط[1] .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : لن نقول له أذهبتَ طيباتك فى حياتك الدنيا ، بل هو فى الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره فى الدنيا لم يُنقص من أجره فى الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم فى الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١١) ما يقرب من هذا دون تفصيل ، فقال : « كان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه » . أما القرطبى فقال فى تفسيره (٧/٥٢٢٩) : « يعنى : اجتماع أهل الملل عليه ، قاله عكرمة » . وقال ابن عباس : « إن الله رضَّى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به » وفى قول آخر عنه « الولد الصالح والثناء » . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٩) .

لما سأله عن سارة قال : أختى ، والثانيـة لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إنى سقيم[1] . والثالثة قوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] أى : عندما حطَّم الأصنام .

ويقـول هؤلاء المتـصيدون : إنها أقوال منافـية لعصمـة الأنبياء . لكن مـا قولكم إنْ كـان صاحب الأمـر والحكم شـهد له بالصـلاح فى الآخرة ؟

ثم إن المتـأمل فى هذه الأقوال يجدهـا من قبيل المـعاريض التى قـال عنهـا النبى ﷺ : « إن فى المـعـاريض لمندوحـة عن الكذب »[2] فقـوله عن سارة : إنهـا أختى ، هى فـعلاً أخـته فى الإيمـان ، وربما لو قال زوجتى لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] فهو اعتذار عن مـشـهد كافر لا ينبغى للمؤمن حضوره ، كـما أن السُّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بمـا يـريد أن يقـوله ؛ ليـقـررهم بأنـهـا أصنام لا تضـر ولا تنفع ولا تتحرك .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم رضى الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غداً عيـدنا فاخرج . قـال : فنظر إلى نجم ، فقال : إن ذا النجم لم يطلـع قط إلا طلع بسقم لى فتولوا عنه مدبرين . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٧/١٠٠] .

(٢) أخـرجه ابـن عدى فى « الكامـل فى ضعـفـاء الرجـال » (٣/٩٦) من حديث عـمـران بن حصـين ، وفيه داود بن الزبرقـان .قال البخارى : مـقارب الحديث . وقـال النسائى : ليس بثقة ، قال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء الذين يُـكتب حديثهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن فى الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا** .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل فى الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء فى عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ **مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنوى الذكَرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتعة تفوق أىَّ لذة أخرى فى الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك .. إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأىِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأىّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التى يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق - عز وجل - ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها فى تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ فى الأولى كان دمه يغلى ، والآن تنزل كلمات الله فى عقد القران على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. ﴿٢٩﴾ [العنكبوت] فهى انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة فى غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له

البقاء الكريم الشريف فى المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبيل كلمة مطلقة وتعنى الطريق ، سواء كان الطريق المادى أى : الشارع الذى نمشى فيه أو : المعنوى وهو الطريقة التى نسير عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨) ﴾ [يوسف] أى : طريقى ومنهجى ؛ لذلك السبيل القيمى سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم فى حركة الحياة المعنوية ، أمّا السبيل المادى فمتعدد حتى لا نتزاحم فى حركة الحياة المادية .

والسبيل المادى (الطريق) الذى نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة فى أى أُمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنة ١٩٣٩ جعل كل همِّه فى إنشاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذى يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذى تنشأ فيه ، فالطرق فى المدن نُسمِّيها شوارع وفى الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المبانى ، ومنها تتفرع الحارات ، وهى أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهى أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كما نرى فى القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارٍ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال فى المدن ، والكبارى أجمل فى الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكبارى آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث

عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلِّل من جمال المكان وتُحوِّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذى سكان العمارات المجاورة لها .

وعلى الدولة أن تراعى هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ﴾ [عبس] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين ؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة فى هذه الطرق .

فقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. ۝٢٩ ﴾ [العنكبوت] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس فى أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع[1] .

يقول سبحانه فى حقهم : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. ۝٢٩ ﴾ [العنكبوت] فكانوا لا يتورعون عن فِعْل القبيح وقوله فيجلسون فى الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهى ويتسكعون فى الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسلَم من إيذائهم أحد .

لذلك يعلمنا النبى ﷺ آداب الطريق ، فيقول لمن سأله :

---

(١) قيل فى معنى ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. ۝٢٩ ﴾ [العنكبوت] ثلاثة أقوال :
- كانوا قطاع الطريق . قاله ابن زيد .
- كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة . حكاه ابن شجرة .
- إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى : استغنوا بالرجال عن النساء .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٣٠) بعد ذكر هذه الأقوال : « ولعلَّ الجميع كان فيهم ، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك » .

وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام»[1] .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ.. (٧٩)﴾ [المائدة]

والنادى : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادى كذا ، ونادى كذا . والنادى وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذى يجب أن يكون فى المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة فى بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك فى صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفى الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذى تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التى تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف فى مكتبه ، والطالب فى مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل فى بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتىٍّ وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادى ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها فى أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٥) ، (٦٢٢٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٢١) كتاب السلام ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٦ ، ٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ [العنكبوت] أى : من الصادقين فى أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذى تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] مع أن العذاب شيء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وَثقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفى موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل]

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦)﴾ [النمل] والعلة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل] لأن الطّهْر فى نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم فى الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾

وفَرْق بين الفاسد فى ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين فى أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾

جاء هنا إبراهيم - عليه السلام - فى سياق قصة لوط ، كما جاء لوط فى سياق قصة إبراهيم . ومعنى ﴿ رُسُلُنَا .. (٣١) ﴾ [العنكبوت] أى : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** .. (٧٥) ﴾ [الحج]

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة فى الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

وتلحظ فى الآية أنها لم تذكر العلة فى البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة فى إهلاك أهل القرية ﴿ **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** (٣١) ﴾ [العنكبوت] لماذا ؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأوليّ عند إبراهيم - عليه السلام - ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط . لذلك قال :

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ[(١)] كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾

---

(١) قال الضحاك : كانت تسمى هيشفع . ومُسخت حجراً . قاله الضحاك فيما أخرجه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ١٢٠] .

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردَّ الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمئنونه على ابن أخيه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] وأهله : تشمل كل الأهل ؛ لذلك استثنوا منهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت]

والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان فى اللغة : نقول : الزمان الغابر أى الماضى ، وغابر بمعنى باق أيضاً ، فهى إذن تحمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهى إذن باقية فى العذاب . فجاءت الكلمة ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت] لتؤدى هذين المعنيين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣)﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة ؟ قالوا : لأن الملَك يأتى على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة

لامرأة العـزيز عن يوسف عليـه السلام : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف]

فلمـا رآهم لوط على هذه الصـورة خـاف عليـهم ، بدل أنْ يفـرح بمرآهم الجـميل ؛ لأن قومه قـوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضـيوفـه بسـوء ؛ لذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ .. ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبـوت] أى : أصابه السوء بسـببهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعنى : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمـعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعنى : لم يتـسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اخـتلاف السـياق بين الآيتـين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت] أما فى لوط فقال : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا .. ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت] لأنهم تأخروا بعض الشىء عـند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بـدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبـوت] لا تخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يسـتـثنون من أهله ﴿إِلاَّ امْـرَأَتَكَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبـوت] فكثـيراً ما ضايقـته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضـيوفه ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

لكن ، ما الطريقة التى ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ(١) رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التى يمطرهم الله بها ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت] أى : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية فى الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الصافات] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿آيَةً بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] الآية : الشىء العجيب الذى يدعو للتأمل ﴿بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] يعنى : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .

---

(١) هى قرية سدوم قرية قوم لوط . على الطريق بين المدينة المنورة والشام . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/١٢٠] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] فصارت مدين عَلَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفى للرسالة يصطفى مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصْلح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

---

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال فى مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهى ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شىء أمر به شعيب قومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التى استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول فى هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التى جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هى إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التى انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ فى بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن فى الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى فى زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقى .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذى قعد عن العمل والسعى ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذى أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات فى الدنيا لننال النعيم الباقى فى الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما فى الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأَوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان فى العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذى يجعل الإنسانَ يتمادى فى المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد فى الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع فى المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا فى الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء فى قوله ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إنى رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعنى : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هبات الخالق ، وشُريان للحياة يجرى بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتى بالطمى فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمى آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسدَ ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعانى آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البكْر التى ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) الرجفة فى القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهى رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وأرجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

فلماذا يُكذِّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعدُّون التاج لعبد الله بن أبى ، لينصبوه ملَكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشىء وقع أنه لم يقع ، أو لشىء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتى إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتى بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ فى ذهنى هذه المسألة ، وكان فى الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعية لا تأتى نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتى النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبى الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] ونهى واحد : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] والأمر والنهى من الإنشاء الذى لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملَكَة العربية التى يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد فى الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهى أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلَّة النهى .

ومعنى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة فى الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهى شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهى واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

كما لو أنكَ استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيتــه أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْل منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْل من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

والنهى فى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادىء الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلَّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشىء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فى أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة فى وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ وجدنا فى الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفى أن رَوَثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل محمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾ [العنكبوت] وهذا عقاب الله ؛ لأنه كان سبحانه يتولّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجِدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
– قوم ثمود . (سورة هود ـ آية : ٦٧) . (سورة القمر ـ آية : ٣١) .
– قوم لوط . (سورة الحجر ـ آية ٧٣) .
– قوم شعيب . (سورة هود ـ آية ٩٤) .

إلى عملـه ، ويقضى مصـالحه ، فـقال له الوالد : ابن فـلان استـيقظ مبكراً ، فوجـد محفظة بها مـائة جنيه ، فقال الولد ـ وكـان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتـقل بنا الآيات إلـى لقطات أخـرى مـوجـزة من مـواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾

نلحظ فى هذه البرقـيات السريعة أنهـا تذكر المقدمـة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[1] .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لمـا نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية اسـتطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كـثير من الآثار لهـذه القرى عاد وثمود والأحـقاف[1] ، واقرأ

---

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقـاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قـوم صالح كـانوا يسكنون الـحجر قريـباً من وادى القـرى ، وكانت العـرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ [الفجر]

وطبيعى الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطى أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين فى أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية فى رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطى قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد فى الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها - ولو من خلال الصور الحديثة التى التقطت لهذه القرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ۝﴾ [العنكبوت] يعنى : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل فى حركة الحياة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .. ۝﴾ [العنكبوت] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝﴾ [العنكبوت] يعنى : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذى اختاره الله تعالى لخلقه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۝﴾ [الإسراء] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ (٣٩) ﴾

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ .. (٣٩) ﴾ [العنكبوت] والدليل على قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾ [العنكبوت] قوله تعالى هنا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٣٩) ﴾ [العنكبوت] أى : بالأمور الواضحة التى لا تدع مجالاً للشك فى صدْق الحق سبحانه ، وفى صدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .. (٣٩) ﴾ [العنكبوت] استكبر : يعنى افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه فى ذاته ما كان ينبغى له أنْ يستكبر ؛ لأن الذى يتكبّر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، إنما بشىء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرْأى ربه فى آثار خَلْقه ، فلو كان ربه فى باله لاستحى أنْ يتكبّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر فى نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبى ؛ لأنه لم ينظر فى حال الضعيف الذى يتعالى عليه ، فلربما يفوقه فى شىء آخر ، أو عنده عبقرية فى أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عَرَضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا فى الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم فى ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أىِّ شىء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعى ، والرجعية لا تُذَم فى ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] أى : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَبَ السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا فى الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلِتوا من قبضتنا ، ولن يُعجِزواَ قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿ فَكُلاًّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة] فهو عوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أَخْذه للمكذِّبين ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأَخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنبِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى[1] حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٣ ، لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

---

(١) هو : محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته . ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفِّى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة فى جدول (مندليف) ، فوضعوه فى موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمى الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التى نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهى بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صدْقه تعالى فى خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سراً من أسرار كونه يأتى به ولو على أيدى الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التى يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذى توفى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفى مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هى نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشيء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى - عليه السلام - بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون فى كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبى ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغى إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختتم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] لأن الخالق - عز وجل - كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ فى الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس فى الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهرى : شديدة البرد جداً . [لسان العرب - مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصيـة النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسـان وهو سـيد الـكون الذى كرَّمـه ربه بالعـقل تظل فـيـه الجمادية بدليل أثر الـجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفـسه من مكان عالٍ لا يسـتطيع أن يمـسك نفـسـه فى الهـواء ، وكذلك تـظل فيـه النبـاتيـة والحيـوانية . ففـيه إذن كل خصـائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عـقله كالجـنون مثـلاً ، وأن يكون مخـتاراً فـالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسـان الذى كرَّمـه ربه بالعقـل والاختـيار ، وفـضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد مـا هو أقل منه رتبة ، فهذا شىء عجيب لا يليق به ، فالعـابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من الـمعبـود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبـات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيـت لها بالدونية ، جعلك سيـداً وجعلت نفسك عـبداً لأحقـر المخلوقات ؛ لذلك يقـول تعالى فى

الحديث القدسى « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلى ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغى له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعنى أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شىء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْى انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فالنبى ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغى للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفى كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشىء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتى على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم - وتعالى الله عن هذا علُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون فى الحدث ذاته ، كأن تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون فى تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك » .
وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شىء » .

ففى قـوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتـضـى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلاَّم) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبـالغة ، فحيـن نقـول مثـلاً : فلان أكول ، فـهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقـول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفـسهم جـاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفـسهم بالكفـر بعد أنْ كـرّمهـم الله ، وكان عليـهم أنْ يُصـعِّـدوا هذا التكريم ، لا أن يُهـينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعـد أن حدثتنا الآيات عن الكـافرين الذين اتخـذوا الشركـاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل ومـا كان من عقـابهم ، تعطينا مثـلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

كلمة (مَـثَلُ) وردت بمشـتقاتهـا فى القرآن الكريم مـرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعني تشبيه قصة أو متعدّد بمتعدّد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحق - سبحانه وتعالى - لا يُشبِّه شيئاً بشيء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذي سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩) ﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خَلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُويَتْ ... أَتـــاحَ لَهـــا لِسَـــانَ حَسُـــود

لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جـاورَتْ ... مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتـقاتها أيضاً (مَثُلَة) كمـا فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ⦗٦⦘﴾ [الرعد] وهى العقـوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتــهر المثَل انتشــر على الألسنة ، وضربه الناس مثــلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتــهر بيننا عبارة مـوجزة ، فتصـير مثلاً يضــرب فى مناسبها كـما نقول للتلميـذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامـتحان (قبل الرماء تملأ الكـنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فـى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المــثَل يقال كما هو دون تغـيير ، سواء أكـان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجـمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلـك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت فى أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. ⦗٤١⦘﴾ [العنكبوت]

فهـذا مثل فى قمـة العقـيدة ، ضربه الله لنا للتـوضيح وللبـيان ، ولتقريب المـسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقـول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سرِّ العظمة فيها .

ففى هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموى .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التى لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] ما فوقها أى : فى الصِّغَر والاستدلال . أى : ما دونها صغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشىء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشىء الأقلّ حجماً الأكثر دقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهى أضخم وأشهر ساعة فى العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها فى ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التى جعلوها فى فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة فى صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان فى حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً فى حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التى بين جنبيك والتى بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثَل الذى ضربه الله لنا : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] أى : شركاء وشفعاء ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذى ينسج خيوطه بهذه الدقة التى نراها ، والذى نسج خيوطه على الغار فى هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة فى التعمية على الكفار .

﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١)﴾ [العنكبوت] أى : من هذه الخيوط الواهية ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس فى اتخاذ البيت ، إنما فى اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط فى البيت أن يكون حصيناً يحمى صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق فى الخَلْق لكان أنسب وأجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨)﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت] أى : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق - عز وجل - فلو فكَّروا فيها وفى أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهى - إذن - دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذى تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أَدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً فى خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها - أى : فى زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغى منك أن تبحث عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شئْتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : فى الأرض ﴿وَرَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت]

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هى مخازن القوت للناس على مَرِّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خِصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢)﴾

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التى تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] وقوله هنا ﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أى شىء .

أو أن (شىء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشىء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذى شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشىء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه . فماذا جرى لكم ؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً فى الخلْق ، والأصنام جمادات ، وهى أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) ﴾ [العنكبوت] العزيز الذى يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم فى كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا

البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عـالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء فى حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل وأقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أى : ما فوقها فى الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهى أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذى لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذى لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففى هذه المخلوقات الحقيرة فى نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلَّ على كفره مع أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق فى الخَلْق . لذلك جاء فى الأثر : « العالم الحق هو

الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد[1] . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل فى كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذى خلق السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق ؟ خاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة ؟ فقالوا جميعاً : ليست لى إلا واحد منهم قال : هى محفظتى ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السموات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السموات والأرض

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : « أول من قال أما بعد داود النبى عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأوائل (حديث ١٩١) والطبرانى فى الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطى فى الوسائل (١١٧) لابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى .

بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء فى الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً فى عمر السموات والأرض وفى عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التى نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذى نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هى لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفى نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفى أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرف عن الشمس والقمر من كبَر حجمهما ، فإنهما يسيران فى مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أى : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف فى كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل فى إبراهيم وفى موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفى شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّى رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] يعنى : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذى لا ينقضى ، وهو كتاب الله ومعجزته التى أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته عَلَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿اتْلُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذى يرسل رسولاً من البشر بشىء أو فى أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إلىَّ بأن تستمع إلى كتابى الذى أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

(١٦) ﴾ [محمد] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة فى صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعِد الأذن الواعية والقلب الصافى غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرِج ما فى نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ فى يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه فى الشاى مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] هذه هى مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرِّرها فى كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شىء إلا أننا

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتى كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا[1] عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأىِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

---

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر فى مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدى مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :
﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبى ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضى على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام فى أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » . وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر فى إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْر الإسلام فى أركانه فقط .

وما فَهِم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أُسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحِسْبة[1] المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة « المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب » وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع . وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىُّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن - دَعْك من العالم المتقدم - ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف] وأُثر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هى عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين »[1] و « بُنِى الإسلام على خمس »[2] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هى أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكى ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض .. إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذى يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكى أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّى ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكّ فى إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحى إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فى رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً . ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شخصياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل من المرسل ، فأراد الحق - سبحانه وتعالى - ألاَّ يحرم أمة محمد فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب منى كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] إقامة الشىء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلى ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »[(١)] .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعى عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادى قبل أن أموت : يا أولادى ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذى يحترم وصيتى منهم يكرم مَنْ يدخل بيتى من بعدى ، والذى لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى فى شأن المسجد الحرام : ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار فى ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك فى هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتى عن عدم فهم لمعنى الأمر الكونى والأمر التشريعى ، فقوله تعالى : ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] أمر تشريعى قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق - سبحانه وتعالى - قال : أمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ فى البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

---

(١) عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٤٧) والبزار (١/٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن) قال الهيثمى فى المجمع (٢/٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

فى ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمـر فى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فالصـلاة تشريع مـن الله ، فإذا كان الله تعـالى هو المـشرِّع ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠) ﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة فى ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعىٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : لا يوجد معها فـحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صـحيح ؛ لأننـى حين أدخل فى الصـلاة بتكبـيـرة الإحرام فـإن هذه التكبيـرة تحرم علىَّ كل ما كـان حلالاً لى قبل الصلاة ، فـفى الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشـرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائـل كانت حلالاً قبل الصـلاة ، فمـا بالك بما كـان حرامـاً عليك أصلاً قبـل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفـحشاء والمنكر فى وقتها ؛ لأن تكبـيـرة الإحـرام (الله أكـبـر) تعنى أن الله أكـبـر من كل شىء فى الوجود حتى من شـهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدى ربك ، ثم تخـالف منهـجـه ؟ فالصـلاة بهـذا المـعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومـعنى (الفَـحْشَـاء) كل مـا يُسْتَـفـحش من الأقـوال والأفعـال (والمنكَر) كل شىء يُنكره الطبع السليم ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ذكر : مـصدر ، والمـصدر يُضـاف للفاعل مـثل : أعجـبنى ضَرْبُ الأمير لـزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعـجبنى ضَرْبُ زيد من

الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذِكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذكْر صادر من الله ، أى للمصلِّى ، فحين يصلى الإنسان ، ويذكر اللهَ بالكبرياء فى قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بالقول وبالفعل ، والله تعالى يجازيك بذكرك له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها فى يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركَ له بالطاعة[1] . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذكْر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى الصلاة تُعد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ومثال ذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - مَنْ يمدح الأمير ويُثنى عليه فى حضرته ، ومَنْ يمدحه فى غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق فى الذكْر ؟

---

(١) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٣٩) .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

يعنى : ذِكْر الله فى الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩ ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذِكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذِكْرك له سبحانه فى الصلاة .

ورُوى عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ㊺ ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذِكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس ـ مع أن هذا القول مخالف لقوله فى الآية ـ؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعى أن يذكر الله فى حال الطاعة ، فهو متهيىء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

(١) أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ㊺ ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقْوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظلّه ، يوم لا ظلَّ إلا ظله - ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] هذا هو ذكْــر الله الأكبــر ؛ لأن الدواعى دواعى معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس فى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك - عز وجل - لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربَع فى نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالى عليك نعَمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعَمه عليك أكبر من ذكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة فى الدنيا موقوت ، أما ذكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة فى الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهى بشارة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .